16 em Année No. 788 — Lundi — 9 — 8 — 1948

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما
الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات
الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٧٨٨ « القاهرة في يوم الاثنين ٤ شوال سنة ١٣٦٧ — ٩ أغسطس سنة ١٩٤٨ » السنة السادسة عشرة

الفريقان المتحاربان في فلسطين

الكرم واللؤم

للدكتور عبد الوهاب عزام بك
وزير مصر المفوض لدى المملكة السعودية

— ٢ —

ما ينقم اليهود من العرب إلا أنهم حموهم وأحسنوا إليهم وأفسحوا لهم في ديار العرب يعيشون أحراراً ويعيشون معابدهم كما يشاءون ويتولون أمورهم الدينية دون حرج .

فتح العرب فلسطين والروم يسيطرون عليها والأمكنة التي يقدسها اليهود والتي يعادون العرب من أجلها اليوم مزابل عفى عليها الزمان والهوان ، فطهر العرب هذه الأمكنة وجعلوها مساجد تعظيما لها واتباعاً لأمر الإسلام الذي يعترف بما في الأديان السابقة من حقائق ، ويعظمها ويبين أنه الدين العام الجامع الذي يجمع كل ما أوحاه الله إلى رسله في العصور كلها ، والأقطار جميعها ، بعد ان ينفي عنها تحريف المبطلين ، ويخلصها مما علق بها من خرافات الجاهلين .

وعاش اليهود في كنف العرب أحراراً في فلسطين وغير فلسطين وتبحبحوا في الأقطار العربية خاصة والإسلامية عامة ، وساروا سيرتهم في عبادة المال ، والتوسل إليه بكل الوسائل فوجدوا مرتعاً خصبا ومتقلباً فسيحاً .

وقد بلغوا في أقطار العرب مناصب عالية ، وكان لجماعات منهم شأن عظيم في الدولة الفاطمية في مصر ، والدولة الإيلخانية في العراق ، ودول العرب في الأندلس ، وغيرها .

***

ثم ضرب الدهر ضرباته ، ودار الفلك دوراته ، وجاء اليهود إلى فلسطين يزحمون أصدقاءهم في ديارهم ، ويستعينون على حماتهم بالأمم التي كرهتهم وأذلتهم وشردتهم ، ففقدوا بأعمالهم صداقة العرب ، ولم يكن لليهود صديق سواهم في هذا العالم .

وينسى اليهود تاريخهم وتاريخ العرب كله ويرمون العرب بكل ما علمتهم أوروبا من عدوان ، وبكل ما في سجاياهم وتاريخهم من ختل وعداوة للبشر جميعاً إلا من كان يهوديا ، وقالوا ، بزعمهم : هذه بلادنا ومواطننا ، نحن أولى بهـا ، قد عشنا فيها زمناً ، وسيطرنا عليها حقبة ، ولسنا نبالي أن يكون العرب استوطنوها بعدنا ، وعاشوا فيها أكثر مما عشنا ، وسيطروا عليها أطول مما سيطرنا ، ودافعوا عنها ونحن مشردون في أقطار الأرض ، وهم اليوم فيها يعمرونها ويتقلبون في أرجائها ويحفظون فيها آثارهم ومآثرهم ، وفي جوانبها قبور آبائهم الذين استشهدوا فيها ودفعوا عنها جبروت الروم ، وجالدوا من أجلها الصليبيين مائتي سنة .

يقول اليهود : لا نعرف التاريخ ولا نذكر فضل العرب فإنا قوم

لا نزن الأمور إلا بالمال والمنفعة ، ولا نقدر الأشياء إلا بفائدتنا وشهوتنا وإن نال غيرنا ضر فهذا الضرر هوانا وبغيتنا ، وبه جذلنا وغبطتنا ، فإننا نعمل لأنفسنا ، ونبغض البشر أجمعين سواء منهم من أساء إلينا كأهل أوروبا ومن أحسن إلينا كالعرب ، ولكننا نستعين بجماعة على أخرى ، ونتمنى أن يهلكوا جميعاً ...

***

لليهود ماض فى فلسطين ، وللعرب ماض وحاضر ؛ لليهود فيها تاريخ انقطع منذ عشرات القرون ، وللعرب تاريخ موصول منذ عشرات القرون . لليهود فى فلسطين تاريخ ذليل مشرد انقطع بجلائهم عنها ويأسهم منها ، وللعرب تاريخ مجيد عزيز دافع عنها فى غير يأس ، واستقر بها فى غير ذلة . لليهود فى فلسطين أحجار مهدومة يبكون عليها هى بقايا الأحداث ، وفضلات العصور . وللعرب آثار قائمة مشيدة تصل تاريخهم ، وتشهد بمآثرهم ، وتكذب دعوى اليهود فى كل بقعة . لليهود فى فلسطين صفحات فى الكتب ، وللعرب صفحات خالدات فى أوديتها وجبالها ومدنها وقراها .

ولو لم يكن للعرب فى فلسطين إلا أنهم دافعوا الصليبيين فيها وحولها أكثر من مائتى عام حتى أجلوهم عنها ، وأقروا مجدهم وتاريخهم فيها ، لكان هذا كفيلا لهم بحقهم فيها أبد الدهر .

***

حق العرب فى فلسطين يقاتل باطل اليهود ، وإحسان العرب يقاتل كفران اليهود وكرم العرب يلاقى لؤم اليهود . يتقاتل فى فلسطين الحق والباطل ، والخير والشر ، والمروءة ، والنذالة ، والأخلاق الإنسانية العالية ، والطبائع الحيوانية الدنيئة ، والتاريخ العزيز القائم ، والتاريخ الذليل الميت .

وإن عدل الله سبحانه ، وإن كرامة الإنسان ، وإن أخلاق البشر ، وسنن الخليقة ، لتأبى أن يغلب جند الباطل جند الحق ، والفئة اللئيمة الفئة الكريمة ، وأعوان الشر أعوان الخير وحزب الشيطان ، حزب الله . .

« بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون » .

عبد الوهاب عزام

أيهـــا العرب

ما حك جلدك مثل ظفرك

للأستاذ نقولا الحداد

قلنها وسأقولها أيضاً : لا تعتمدوا على الحق مهما كان حقكم صراحاً ، لأنه ليس للحق مكان فى هذا العالم الشرير ؛ فقد علمتم أن هيئة الأمم هى جمعية تقسيم أسلاب وغنائم ، وأن مجلس الأمن مجلس مؤامرات وما أوصت هيئة الأمم بتقسيم فلسطين إلا كتقسيم الأسد الأمريكى الفرائس على صماليك الأمم والدول .

وقد طاوعتم مجلس الأمن فى الهدنة الأولى لظنكم أنهم يحسبون لكم احترامها كرم أخلاق ، فظهر لكم أنها دسيسة سياسية دستها إنجلترا وأمريكا عليكم لكى تسلم الماجاناه من الهزيمة النكراء ، ولكى تتسلح مزيداً وتزداد عديداً . وهكذا كان .

والآن وقد عاد برنادوت بقضه وقضيضه من الجنود والبوارج والطرادات والنسافات والطائرات الضخمة والحلزونية والمركبات المصفحة والدبابات و و و الخ من الأسلحة ، وفى هدنة لا آخر لها لكى يجعل فلسطين أخيراً كلها ، لا قسماً منها ، دولة إسرائيل . وقد جعل الهدنة بلا أجل مسمى ، لكى يصفو له الجو ، ويرتب ويدرب على مهل ، وهو يزعم أنه يفاوض ويماحك ويناهض ويعارك وأخيراً يستفتى .

وما معنى كل هذا وقد علم أن فلسطين كل لا يتجزأ ، فهل يمكنه أن يعمل أعجوبة بأن يجزئها وتبقى كلا ؟ ثم يستفتى من ؟ وهو يعلم أن العرب أكثرية ساحقة . فبطبيعة الحال ستكون نتيجة الاستفتاء أن فلسطين كلها لسكانها من عرب ويهود فلسطينيين فما معنى الاستفتاء ، وما معنى المفاوضة والأمر واضح ؟ إلا إذا كان برنادوت يظن أن العرب يملون طول الهدنة واليهود لا يملونها لأنهم مقيمون فى فلسطين كلها يستغلونها وأهلها مشردون عنها . وكيف يمكن أن يعودوا إليها غير مسلحين ويأمنون شر اليهود الأرداء .

لو كان برنادوت « كونتاً » أى من الشرفاء كما قيل لنا قبل

هذه المهمة العقيمة ، وهى مهمة غير شريفة ، ولمّا قال إنه لم يأت لإحقاق الحق ، بل لكى يسوى خلافاً بين العرب واليهود بأية طريق ولو بالغبن للعرب . ولما رأى أن هذه المهمة مستحيلة عليه عاد بقوات حربية ضخمة لكى ينفذ بالقوة القاهرة ما شاء وشاء له منتدبوه .

لا ندرى الآن إلى أى حد يفلح . نترك الأمر للزمن . وإنما يجدر بالدول العربية كلها أن تحذو حذو العراق باستدعاء مندوبيها من هيئة الأمم إذا لم تقرر هذه الهيئة اقتراح سوريا بعرض قضية فلسطين على محكمة العدل فى لاهاى . فربما كان فيها عدل ، لأنه لا يليق بالدول العربية أن تكون أعضاء فى عصابة متحكمين مستبدين يبتزون من هذا لكى يعطوا هذا ، ولا أن يكونوا فى جمعية لا تريد العدالة .

برنادوت يستطيع بقوته الحربية أن يقهركم . ولكنه لا يستطيع أن يقهر عصابة الأرجون الإرهابية لكى تطلق سراح الإنجليز الخمسة ، حتى إن إنجلترا التى عجزت عن تخليصهم من براثن الأرجون ، تضطر أن ترفع شكواها إلى مجلس الأمن ، وأن يقف السير ألكسندر كادوجان إلى جنب شق من أشقياء الأرجون ، وهل تخضع عصبة الأرجون لمجلس الأمن إذا كانت لم تخضع لهيئة الأمبراطورية البريطانية العظمى ؟

كنت أتمنى أن تكون هذه الحادثة مع ألمانيا فى عهد هتلر أو مع فرنسا لعهد ديجول فى دمشق ، إذن لرأينا تل أبيب كلها تندك على رءوس سكانها فى ساعة من الزمن ، لأنه لا ألمانيا ولا فرنسا تحتمل هذا الاستخذاء إلا متى قهرت فى الحرب .

ليس غرضى من هذا المقال أن أقول ما قلته الآن . بل غرضى أن أسائل : ماذا تعلمنا من دروس فى هذه الأحداث الأخيرة ؟

ظهر لنا أننا لم نبخل بالمال ولا بالرجال ، حتى ولا قصرنا فى السياسة وإنما سلاحنا قصر ، وجميع الدول تألبت علينا لحرمتنا السلاح ، ولولا هذا لكان بنو إسرائيل الآن طعاماً لسمك بحر فلسطين .

نحن إذن فى حاجة ماسة إلى السلاح ، ليس الآن فقط ، بل فى كل حين ، لأننا لا ننتهى مع الصهيونيين بانتهاء هذه المرحلة ؛ بل سنبقى فى صدام معهم ما داموا بين ظهرانينا . فإن استتبت قدمهم فى فلسطين كانوا نكبة علينا لا تنتهى . فيجب أن نكون دائماً على استعداد لمناهضتهم إلى أن نقذفهم فى بحر فلسطين . فمن أين السلاح ؟

يجب أن نستغنى عن سلاح أية دولة أجنبية . لماذا لا نصنع سلاحنا بأنفسنا ؟ ماذا ينقصنا ؟ المال ؟ نحن أغنياء . العقول ؟ لقد شهد الأجانب فى مؤتمرات كاليفورنيا ونيويورك ولايك سكسس أن لنا عقولاً ممتازة . العمال؟ عندنا كثير منهم .

يجب أن ننشئ معامل ضخمة فى جميع البلاد العربية لصنع آخر طراز من الطائرات الخفيفة الضخمة ، وأن ننشئ معامل ضخمة لصنع المدافع من كل طراز والبنادق والذخائر على اختلاف أنواعها ، وأن ننشئ دور صناعة وحياضاً لصنع السفن ، ومعامل لصنع الركبات على اختلاف أنواعها والدبابات .

كل هذا ممكن إذا كانت الدول العربية تعزم عزماً صادقاً أن تفعله ، لا أن تعتمد على شركات مالية ، لأننا نحن الشرقيين لم نجرؤ بعد على الأعمال الاقتصادية الاجتماعية . والعصر عصر اشتراكى أكثر مما هو إفرادى . فيحسن أن تكون هذه المصانع الحربية ملك الأمة لا ملك الأفراد أو الشركات . ويجب أن تقدم هذه المشروعات على كثير من المشروعات الحكومية التى يمكن تأجيلها لمدة خمس سنين على الأقل لأن الدفاع عن النفس يقدم على كل اعتبار

هذا ما يجب أن تفكر فيه الأمم العربية الآن ، لأن العصر عصر الاعتماد على النفس ، وإلا تغدّى بنا الصهيونيون قبل أن نتعشى بهم . لم يعد فى إمكان الأمم التواكل أو الاتكال على غيرها ما دامت تبتغى الاستقلال التام . الاستقلال التام يقتضى الاستقلال فى كل شىء على الإطلاق لا الاستقلال بكراسى الحكم فقط .

هذه كلمة صغيرة جداً من عربى صغير جداً ، ولكنها كبيرة جداً لأمة عربية كبيرة أو تدعى أنها كبيرة . فالكبير يجب أن يكون مستغنياً عن كل كبير وصغير . والسلام على من اتبع الهدى

نقولا الحداد

الاتجاهات الحـديثة
في دراسة التاريخ

للدكتور جواد علي
سكرتير المجمع العلمي العراقي

(بقية المنشور في العدد الماضي)

أما مذهب « المادية البيولوجية » فقد دعا أصحابه إلى تطبيق القوانين البيولوجية مثل نظرية داروين وما يتعلق بها على التاريخ وعلى المجتمعات البشرية باعتبار أنهـا نوع من الـكائنات الحية وأنها خاضعة للقوانين العامة التي تخضع لها كل الوجودات . فبحثوا في التاريخ البشري على أنه وجه من أوجه النشوء والارتقاء، وبقاء ما هو أصلح وبحثوا عن الوراثة عند الأمم ، كما فعل « فريدريك فون هلولد » « Friedrich von Hellwald » في بحثه عن التاريخ الثقافي وتطوره من أقدم عصوره حتى الآن . و « دورنك » « E Dübring » « ١٨٣٣ — ١٩٢١ م » وهو من الفلاسفة الذين لاقوا معارضة قوية بسبب آرائهم المتعلقة في المادة ونكران الروح .

فعند هذا الفيلسوف « الإيجابي » أن « الشيء الحقيق » هو الأشياء المرئية فقط ، وعلى ما تظهر للانسان ، وأن الأشياء كلها واحدة ، وأنها هي الواقع أو الحقيقة ، وما عدا ذلك فسخافات . وإن ما يسمى بالروح ليس إلا أسطورة ، وأن « الحس » أو « الشعور » طاقة من طاقات المادة ، ولا توجد ما فوق « المادة » أي أمور أخرى ؛ وأن الطبيعة نفسها تشعر وتفكر بالشكل الذي عناه من المادة ، ولهذا يجب دراسة التاريخ على هذا الأساس . فرفض بهـذه النظرية المذاهب المعروفة القائلة بما وراء الطبيعة والمذهب الرومانطيق كذلك .

ومن هؤلاء أيضاً « أوتوسيك » « Otto seeck » في كتابه عن تدهور العالم القديم و « كومبلوبتز » « gumplowieny » في مؤلفاته عن الاجتماع . و « هوستن ستيوارت شامبرلين » « H · St · Chamberlain » في كتابه المشهور عن أسس القرن التاسع عشر . وقد بحث هـذا في التاريخ متأثراً برأي أصحاب نظرية النشوء والارتقاء ، ففرق بين الشعوب « المبدعة » وهي الشعوب المبتكرة على رأيه ، وبين الشعوب المتمدنة والتي لم تفعل في نظره غير ذلك . وبنى تاريخه على أساس عنصري فمجد الآرية والشعوب الآرية وغنى بتفوق الأمم الأوربية على سـائر أمم العالم .

ومن أصحاب هـذه النظرية « فولتمن » « woltmann » وهو طبيب ومؤرخ وعالم من علماء علم الاجتماع . طبق نظرية « داروين » على التاريخ وعلم الاجتماع وخرج بتأثير هـذه النظرية على أن الشعوب غير متساوية في الكفايات وأن الشعوب الشمالية هي الشعوب المنتجة والمبتكرة في هذا العالم . وكذلك « نوفيزو » « novicon » و « Hartwig » وقد حاول هؤلاء مندفعين بالنظرية الداروينية وبما شاهدوه من تقدم عظيم في أوربا وتأخر في الشرق إلى تطبيق هـذه النظرية على التاريخ وفي السياسة .

وقد بحث في هـذا الموضوع وبصورة أوضح وأعمق جماعة من أصحاب المذهب « الواحدي » « moniámus » القائل بأن أصل كل الأشياء واحد وهو « المادة » أو « الروح » ، ومن هؤلاء « أوستوالد » « Ostwald » « ١٨٥٣ — ١٩٣٢ م » وهو أستاذ من أساتذة الكيمياء حاول تطبيق مبدأ « الطاقة » حتى على العلوم الاجتماعية ، فألف في الثقافة وفي علم الاجتماع ؛ والعالم « كولد شايد » « golds cheid » صاحب نظرية « الاقتصادية البشرية » وقد بحث في « المادية » على أنها طاقة من الطاقات التي يتأثر بها التطور البشري .

إن أصحاب هذه النظرية وإن كانوا قد تأثروا بنظرية « داروين » وبالآراء المادية إلى حد كبير ؛ غير أنهم لم ينكروا عموماً وجود « الروح » . وقد فسروا « الروح » تفسيراً يلائم النظريات الطبيعية ، كما أنهم فسروا تأثير القوة الموجدة و « الله » تفسيراً لا يدعو إلى مذهب الإلحاد أو نكران الخالق نكراناً باتاً « Atheismus » .

والمذهب الآخر من المذاهب المادية في تفسير التاريخ هو مذهب « المادية الاقتصادية » أو « الوجهة المادية في تفسير التاريخ » فكل العوامل المادية المؤثرة في التاريخ البشري هي

ذات طابع اقتصادى ، وهذه العوامل الاقتصادية تؤثر فى حياة الأفراد والجماعات والحكومات . وحتى فى العلوم والأديان . وما الحياة الإنسانية والمظاهر الثقافية على رأى هؤلاء سوى مظهر من مظاهر التقلبات الاقتصادية ، فالتاريخ إذن هو تاريخ اقتصادى ، والعامل الاقتصادى إذن هو العامل الفعّال فى تغيير مجرى التاريخ وتكوين التاريخ .

ويلتقى بهذا المذهب التاريخى مذهب آخر يقال له « المذهب الإثباتى فى التاريخ » وهو قريب من المذهب المادى وإن ظهر لنا أن المبادىء مختلفة تمام الإختلاف . ومن رجال هـذا المذهب الفيلسوف الفرنسى « أوكست كونت » « Auguste Comte »

يرى أكثر رجال هذا المذهب أن التاريخ البشرى مر فى مراحل حتى بلغ هذه المرحلة الأخيرة ، وإن من الممكن تمييز ثلاث مراحل مهمة مرت بها هذه البشرية وهى :

١ — مرحلة إرجاع كل الأشياء إلى أسباب وعوامل روحية وقوى غير منظورة مثل السحر والقوى الخارقة والآلهة والقوى التى لا يمكن رؤيتها .

٢ — مرحلة ما وراء الطبيعة « metaphysic » أو مرحلة الأفكار المجردة ، وترجع فيها الأسباب والمسببات والوجود وما يحدث إلى عامل مؤثر .

٣ — المرحلة الثالثة وهى مرحلة « الفكر الإيجابى » وفى هذه المرحلة بدأ الإنسان يفكر فى ترك البحث فى العلل النهائية غير المنظورة إلى البحث بالطرق الإيجابية وفق الطرق الطبيعية وقوانين التجارب العلمية .

وقد تطورت أكثر العلوم وسارت سيراً إيجابياً إلا العلوم التى تبحث عن المجتمع والمجتمعات البشرية فإنها لا تزال فى حاجة إلى إيجاد قوانين ودساتير كالدساتير الطبيعية يتمكن بواسطتها عالم الاجتماع أو التاريخ من الحصول فى النهاية على نتائج إيجابية ثابتة .

وقد وجدت آراء « كونت » رواجاً كبيراً بين الجماهير . وإن لم يكن ذلك التأثير تأثيراً مباشراً بل كان بواسطة كتابات الكتاب الآخرين أمثال «جون ستيوارت دميل » و«هربرت سبنسر » و « هنرى توماس بكل » و « إميـــل ليتريه » « Emil Littré » و « هنرى تين » « Henr Taine » وغيرهم . لقد وجه هؤلاء أنظار قرائهم إلى دراسة العلوم الاجتماعية وحالات الشعوب والتاريخ الثقافى وما إلى ذلك وساعدوا على نشر آرائه ولا سيما « بكل » « Buckle » فى كتابه القيم الذى ظهر بين سنة ١٨٥٧ — ١٨٦١ وهو « تاريخ المدنية فى انكلترة » .

وقد أشار إلى ضرورة دراسة نفسيات الجماعات والعوامل الروحية التى تؤثر فى التطور الثقافى ، ولابد لمعرفة ذلك من الاستعانة بالإحصائيات التى تتعلق بالجماعات . وبواسطة هذه الدراسات التى تستند على الطرق التجريبية نتمكن من رفع « التاريخ » إلى درجة « علم » من العلوم . أما الاستعانة بالحوادث الفردية وبالوقائع المدونة فإن ذلك لا يرفع من التاريخ شيئاً ، ولا يمكن أن يصل به إلى منزلة العلوم .

وقد تطرق إلى هذا البحث بحث الاستعانة بالإحصـائيات لتكوين « علم التاريخ الناطق » عالم فرنسى هو « هنرى بوردو » « Henri Bourdeau » فى كتابه الذى ظهر سنة ١٨٨٨ وعنوانه التاريخ والمؤرخون L'histoire et les historiens حيث نادى بوجوب تدوين التاريخ على صورة أرقام وإحصائيات ناطقة تتكلم للناس بصراحة وبدون خجل ، مثل المعادلات الرياضية أو الكيماوية . أما وصف الحوادث وتدوينها على رأيه ، فذلك من وظائف الآداب .

ومن الذين نحوا منحى « كونت » فى ألمانيا المؤرخ الألمانى « كارل لامبرشت » « Karl Lamprecht » الذى سار على أكثر الأسس التى وضعها ذلك الفيلسوف الفرنسى وطبقها فى التاريخ الاجتماعى . وقد أشاد بالقيم التاريخية للجماعات وبأنها هى الموجهة للتاريخ متجاهلا بذلك « عامل الفرد » فى التاريخ وتأثير الأفراد فى الجماعات . وقد أدى ذلك إلى احتدام النزاع بين المؤرخين فى موضوع مهم جداً : هل التاريخ من صنع الأفراد أم من صنع الجماعات ؟ وأيهما أقوى أثراً فى سير الحوادث البشرية ؟ فكان من تأثير ذلك ظهور رسالة طريفة فى موضوع « أهمية الشخصية فى التاريخ بالنظر إلى مقدمة بلوشى فى تاريخ اليونان » .

وقد اصطدم « لامبرشت » بأكثر المؤرخين من أتباع

تعليق على مقال فى الرسالة :

جهود العرب المنسية

فى الفلك والهيئة

(كتاب عربى فى الهيئة يذكر قبل مئات السنين ما اكتشفه الغرب حديثاً)

للأستاذ ضياء الدخيلى

قرأت فى العدد (٧٨٢) من مجلة الرسالة الغراء مقالا للدكتور فضل أبو بكر ، جاء فيه إغفال لجهود علماء المسلمين والعرب فى علوم الطبيعة والفلك ، فوجب على أن أعرفه بالحقيقة .

قال الدكتور :

(كان الإنسان لعهد ليس بالبعيد يعتقد فى سطحية الأرض وبظنها انبساطاً ممتداً إلى ما لا نهاية له ، بساطاً لا حراك فيه ، وكان جهله بالسماء وكواكبها أشد من جهله بالأرض التى يعيش فوق أديمها ، وذلك إلى أوائل القرن السابع عشر حتى جاء (جاليلى) و (نيوتن) و (لابلاس) فيما بين منتصف القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر ، فأثبتوا كروية الأرض ودورانها حول الشمس وقانون الجاذبية ونهضوا بعلم الفلك ووضعوا له أسساً وقواعد علمية متينة) .

ولا أريد أن أطيل محاسبة الكاتب المحترم فحسبى أن أقتطف له فقرات من كتاب الملخص فى علم الهيئة ، تأليف محمود بن محمد الجغميني ولم تحضرنى ترجمته ، ولكن من الأكيد أنه كان قبل جاليلي ونيوتن بزمن طويل ، وقد شرح رسالته المختصرة شارح [لم يذكر اسمه فى المطبوع فى إيران] . وأهدى الشرح إلى السلطان بن السلطان بن السلطان ألغ بيك بن شاهرخ بن أمير تيمور كوركان خلد الله شموس سلطنته [1]

وقد طبعت هذه الرسالة فى إيران وكنا نتدارسها فى مدارس النجف الأشرف ككتاب مدرسى (text book) فى علم الهيئة ، قال : (المقالة الثانية فى بيان الأرض وما يتعلق بها ، وهى ثلاثة

(١) لم أعثر على ترجمة الجغميني ولكني وجدت فى كشف الظنون قد ذكر حاجي خليفة الكتاب مع شروحه الكثيرة قال الملخص فى الهيئة البسيطة لمحمود بن محمد الجغميني الخوارزمي المتوفى سنة ... (كذا) وهو مختصر مشهور مرتب على مقدمة ومقالتين ، شرحه موسى بن محمود المعروف بقاضي زاده الرومي ، وفرغ منه سنة ٨١٥ لألوغ بيك ميرزا

طريقة المؤرخ « رانكه » فى تدوين التاريخ .

غير أن هنالك جماعة ساروا على نهج آخر فى تفسير التاريخ البشرى هو نهج الفيلسوف الشهير « كانت » « Kant » . ومثل هؤلاء « فيشته » و « شلنك » و « هيكل » غير أن أعظم ممثل لنظرية « كانت » فى التاريخ هو المؤرخ الشهير « ليوبولدفون رانكه » « Teopold van Ranke » الذى اهتم على الأخص بالبحث فى « نظرية الفكرة » وأهمية الدولة والفرد . وقد انتقلت آراؤه هذه إلى تلاميذه ومريديه .

ومن أهم النقاط التى بحثت فيها مدرسة « رانكه » هى كيفية اشتراك الشعوب العالية كلها فى تكوين « التاريخ » والحرية والجماعة وعلاقة الفرد بالحكومة ، وكيف أمكن الجمع بين الحرية والإرادة الحرة للأفراد ، وتكون التاريخ العالمى . وحكم الضرورة الذى أجبر الإنسان على تقييد حريته طائعاً مختاراً لئلا يقع فى كفاح لا نهاية له ، فاضطر إلى تكوين الحكومات والخضوع لأحكامها مع ما فى ذلك من تضييق للحريات . فضمن بذلك من جهة أخرى أكبر قسط ممكن من الحرية للأفراد . وقد جاءت هذه الآراء فى شعر الشاعر « شلر » كما جاءت فى نظرية « هيكل » عن تطور العالم فى نظريته عن تطور الـ « Idée » أو « الفكرة » حتى وصلت إلى ما وصلت إليه فى العهد الثالث وهو « العصر المسيحى الجرمانى » .

على أن هذا المذهب فى التاريخ يقابله مذهب آخر هو المذهب التجريبى expressionism والمذهب الانطباعى Impressionism فى التاريخ . ومذهب « الموسوعيين » . و « الإنسانيين » .

جواد على

أبواب الأول فى المعمور من الأرض وعرضه وطوله وقسمته إلى الأقاليم السبعة : الأرض كرية الشكل كما سلف فى المقدمة ، ويبتنى عليها مسألة غريبة وهى أنه لو تيسر السير على جميع الأرض وتفرق ثلاثة أشخاص من موضع معين بأن سار أحدهم نحو المغرب والآخر نحو المشرق وأقام الثالث حتى عاد إليه السائر إلى المغرب من المشرق والسائر إلى المشرق من المغرب فى وقت واحد لكان الأيام التى عدها الغربى فى مدة الدورة أنقص من أيام المقيم بواحد ، وأيام الشرقى أزيد منها بذلك ؛ ويتفرع عليها مسائل غريبة يسأل عنها ، كما يقال : هل يجوزأن يكون يوم بعينه جمعة عند شخص ، وخميساً عند آخر ، وسبتاً عند ثالث ، وغير ذلك مما هو من هذا القبيل ، فيجاب بالجواز ويستغرب هذا) [أقول إن نقصان الأيام وزيادتها هنا مبنى على ما تسببه مما كسة دوران الأرض أو مسايرته] ثم إن المؤلفين يقسمان الأرض إلى المناطق المتعارفة فى كتب الجغرافيا اليوم فيقولان (وتفرض على الأرض ثلاث دوائر إحداها فى سطح معدل النهار(٢) وهى خط الاستواء كما عرفت ، والثانية فى سطح أفق الاستواء ، والثالثة فى سطح دائرة نصف النهار، وكلتاهما فى منتصف المعمورة بخط الاستواء، فالأولى تقطع الأرض بنصفين جنوبى وشمالى ، والثانية تنصف كلا من نصفيها المذكورين فيصير الأرض بهما أرباعاً ، ربعان جنوبيان ، وربعان شماليان ، والمعمور منها أحد الربعين الشماليين، وهو الربع المشهور بالربع المسكون على ما يرى فيه من الجبال والصحارى والمروج والبحار ونحوها كالآجام ونحوها من المواضع الخربة . قال الشارح يعنى أن المعمور منها هو هذا الربع مع أن أكثرها خراب فى زماننا هذا وسائر الأرباع خراب ظاهراً ، وإلا لوصل خبرهم إلينا غالباً ، ويحتمل أن يكون بيننا وبينهم بحار مغرقة ، وجبال شاهقة ، وبرارى بعيدة تمنع وصول الخبر إلينا . غير أن أحد الربعين الجنوبيين قد حكى أن فيه قليلامن العمارة كما يجىء . وأما ما يحكى من قصة وقعت فى نوبة ذى

(١) قال الجغمينى فى المقالة الأولى إنما سميت هذه الدائرة العظيمة معدل النهار لأن الشمس إذا سامتها اعتدل الليل والنهار تقريباً فى جميع النواحى إلا فى عرض تسعين أى تساويا فى المقدار والدائرة التى وسطها على على وجه الأرض تسمي بخط الاستواء لاستواء الليل والنهار فيها تقريباً .

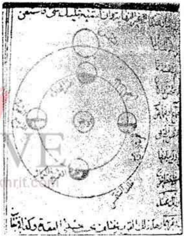
القرنين فالظاهر أنها موضوعة لا أصل لها ، والله أعلم بما فى ملكه (١) .

والدائرة الثالثة من تلك الدوائر الثلاث تقطع المعمور بنصفين غربى وشرقى ، ونقطة التقاطع بين الدائرة الأولى والثالثة تسمى قبة الأرض ، وابتداء المعمور من خط الاستواء على ما ذكره بطليموس فى المجسطى ، إلا أن بطليموس بعد ما صنف المجسطى زعم فى كتابه المسمى بجغرافيا أى صورة الأقاليم أنه وجد وراء خط الاستواء فى أطراف الزنج والحبشة عمارة الخ .. فها أنت ترى أن ما أدرجاه قريب جداً مما يدرسه طلاب الجغرافيا والفلك اليوم . وإليك ما قاله المؤلفان عن اختلاف الليل والنهار: (والشمس إذا وقع ضوؤها على الأرض استضاء وجهها المواجه للشمس لكونها كثيفة ووقع ظلها لكثافتها المانعة من نفوذ الضوء فى مقابله جهة الشمس ، إذ من شأن الظل أن يكون كذلك ؛ فإذا كانت الشمس فوق الأرض فهو النهار ، وإذا كانت تحت الأرض وقع ظلها فوقها وهو الليل ، ووقوع ظلها يكون على شكل مخروط مستدير ، إذ الشمس أعظم جرماً من الأرض بكثير .

وقال المؤلفان عن الخسوف والكسوف : (إن جرم القمر فى نفسه مظلم، وإنما يستضىء بضياء الشمس فيكون النصف المواجه للشمس أبداً مستضيئاً لو لم يمنع مانع كحيلولة الأرض بينهما ، والنصف الآخر مظلماً ؛ وهذا الحكم تقريبى لمابين فى موضعه من أن الكرة إذا استضاءت من كرة أكبر منها كان المستضىء

(١) القصة هى ما ذكره صاحب كتاب عجائب المخلوقات من أن ذا القرنين استولى على الربع المسكون وأراد الاطلاع على ما فى البحار فأرسل أربعين سفينة مشحونة بأصحاب التجارة والأبطال فذهبوا مدة مديدة حتى لقوا سفينة فيها قوم سود الوجوه زرق العيون ، وقد صار الأمر إلى المحاربة بينهم وغلب أصحاب ذى القرنين فقتلوا بعضهم وأسروا آخرين فاستخبروهم فلم يجيبوا بمايفهمون، فتحيروا فى ذلك فجاءوابهم إلى ذى القرنين فأنكحهم جوارى حتى توالدوا وتعلم أولادهم لغة الفريقين فسئلوا عن أحوالهم فقالوا نحن أقوام من بلد كنا لنا ملك استولى على البلاد كلها ، فلما فرغ من حكم البر تاقت نفسه للاطلاع على عجائب البحار فأرسل أقواماً شتى فى السفينة إلى البحار ونحن من جملتهم . فلما سمع ذو القرنين كلامهم تحير فى عجائب صنع الله تعالى .

أكثر من نصفها ، فعند الاجتماع يكون القمر بيننا وبين الشمس فيكون نصفه المظلم مواجهاً لنا فلا نرى شيئاً من ضوئه ، وذلك هو المحاق ؛ وإذا بعد عن الشمس مال نصفه المضيء إلينا فنرى طرفاً منه وهو الهلال ؛ ثم كلما ازداد بعده عن الشمس ازداد ميل النصف المضيء إلينا فازداد ضياؤه أي نور القمر بالنسبة إلينا وهو الزيادة حتى إذا قابلها صرنا بينهما وصار ما يواجه الشمس يواجهنا وهو الكمال ؛ فإذا انحرف عن المقابلة مال إلينا شيء من نصفه المظلم ثم كلما زداد ذلك الميل يأخذ الظلام بالزيادة حتى يمحق القمر (١)



الصورة رقم (١) الأهلة

هذه الصورة ترسم حركة القمر في فلكه حول الأرض حيث يبدو هلالا ثم قمراً ثم يدخل المحاق ، كل ذلك تبعاً لوضع جزئه النير بالنسبة إلى الأرض ، وتبدو الأرض كروية في وسط مدار القمر ويشاهد القمر ذا نصفين مضيء وهو المقابل للشمس ، ومظلم وهو الشطر الثاني ، وتبدو الشمس كروية في أعلى الصورة وقد رسم مدارها حول الأرض وهذه نقطة الخلاف بين الهيئة القديمة والحديثة .

(أخذت الصورة من شرح الجغميني في الهيئة)

وإذا حال القمر بين الشمس وبيننا فيستر ضوءها عنا كلا أو بعضاً وهو كسوف الشمس ، وهذا السواد الذي يظهر في الشمس هو جرم لون القمر ، وإذا حالت الأرض بينهما ووقع ظلهـا على وجه القمر المواجه للشمس كله أو بعضه فلم يصل إليه ضوء الشمس أصلا أو بقدر ما وقع عليه الظل فيبقى ما لم يصل إليه الضوء على ظلامه الأصلي وهو خسوف القمر . ولنجتزىء بما



الصورة رقم (٢) الكسوف

هنا يعرض الرسم الشمس النير الأعظم في أعلى الصورة وتحتها القمر وقد أرسل ظله مخروطي الشكل فحجب جزءاً من الشمس أو كلها عن جزء من كرة الأرض وفي وسط الدوائر (تقريباً) الأرض وقد أرسلت في الفضاء ظلها المخروطي الشكل ، وقد خطت الدوائر التي تمثل أفلاك الشمس والقمر .

(أخذت الصورة من شرح الجغميني في الهيئة)



الصورة رقم (٣) الخسوف

وفيها تبدو الشمس في أعلى الصورة وفي الوسط كرة الأرض وقد امتد أسفلها ظلها المخروطي الشكل وقد وقع داخله القمر وهو الدائرة البيضاء في داخل المخروط ورسمت الأفلاك كدوائر حوالى الأرض وكانت ترى الهيئة القديمة أنها مركز العالم .

(أخذت الصورة من شرح الجغميني في الهيئة)

تقدم عرضه من كلام هؤلاء الذين عاشوا قبل (جاليو) بمئات السنين ولتغفروا لنا طول ما اقتبسناه من مؤلف الجغميني (الملخص في الهيئة) ومن شرحه وقد طبعا في إيران عام ١٢٨٦هـ والمادة في النجف الأشرف أن يدرسا في رمضان عندما تتعطل باقي الدروس الأصلية.

لقد تبين مما تقدم أن علماء الفلك المسلمين لم يكونوا يعتقدون في سطحية الأرض ولم يكونوا يظنونها بساطاً ممتداً إلى ما لا نهاية له الخ، كما ظن الدكتور فضل.

بقي لنا أن ندرس فكرة حركة الأرض فهل هي حديثة الميلاد كما تفضل فضل الحق أنها ليست كذلك. وحرصاً على الوقت نورد مقتطفات من آثار أناس يوثق بشهاداتهم، قد عرفوا بالخبرة في الموضوع. هذا هبة الدين الشهرستاني يقول في كتابه (الهيئة والإسلام) — (إن أول من كشف السر عن دوران الأرض هو (فيثاغورس) النابغ قبل الميلاد بقرون خمسة، وتبعه (فلوطرخوس) و (ارخميدس) ثم قوى رأيه (ارسترخوس) الساموسي بعده بقرنين، وعلم دوران الأرض السنوي حول الشمس فنُشِّكي وكفر، ثم نبغ بعده بنصف قرن (كليانتوس) من أسوس واختار الحركتين للأرض فشكي وأتهم بالكفر أمام الحكام؛ ثم ظهر (بطليموس) بعيده بقليل فأوضح سكون الأرض الذي كان الناس يزعمونه فطرياً ويحسبونه بديهياً ورتب الأجرام السماوية والحركات الفلكية على ما فصله في (المجسطي) فنال نظامه الصوت والصيت في العالم المتمدن (حينذاك) حتى أصبح المتفلسفون من المسلمين وغيرهم ينقحون هيئته ويدافعون عنها. وكان في مهرة فلاسفة المسلمين من يدفع الموانع عن تحرك الأرض أيضاً كالعلامة نصير الدين الطوسي والفاضل بهاء الدين العاملي وكان الأفرنج يومئذ غارقين في الضلالة، وكان استبداد البابوات قد منع الأفواه والأفهام عن التحرك في سبيل العلوم العقلية وإظهار ما لا تقبله الكنيسة. وقد أحرقت الوفا من المستنيرين بعلوم الإسلام وفلسفة ابن رشد القرطبي. وحسبك أن الحكيم (برونو) نطق بسير الأرض قبل الألف الهجري، فهجروه وأبعدوه عن أوطانه ثم سجنوه ست سنين، ثم أحرقوه وأحرقوا كتبه. واجترأ (غاليلو) بعد الألف الهجري، فأثبت الحركتين للأرض فأهانوه، واضطهدوه حتى قارب الهلاك ثم سجن طويلا. وأول من نطق بتحرك الأرض من الأفرنج هو (الكردينال دى كورا) ثم (الكردينال إليناكوس) ثم (جون مولار) لكنهم لم يتجاهروا بالقول ولا أتوا بأدلة مقنعة حتى قام (كوبرنيك) في حدود الألف الهجري وأقام أدلة قوية وكتب الرسائل والكتب في هذه المسألة، فصار بذلك محييها ومؤسساً للهيئة العصرية وسلك الحكماء مسلكه، فأصبح اليوم هذا النظام هو الشائع).

ويؤيد كلام الشهرستاني ما قرأت في كتاب (مبادىء علم الهيئة) تأليف ألبز أوّت، إذ جاء فيه (أنه في نحو نصف القرن السادس عشر، بينما كان تعليم بطليموس هو المشهور في كل مدارس أوربا قام (كوبرنيكوس) من بروسيا، وأحيا تعاليم فيثاغورس التي هي التعاليم الحقيقية المعول عليها في هذه الأيام، وهي أن الشمس مركز، والأرض وبقية السيارات تدور حولها، وأن لكل منها دورة ثانوية تدور على محورها) وفيه (أن فيثاغورس قبل المسيح بخمسمائة سنة، أسس المدرسة الثانية المشهورة الفلكية وهي في كروتونا من أعمال إيطاليا، وهو أول من اكتشف ناموس حركات الاجرام السماوية، ولكن آراءه رفضت عند علماء هذا الفن بسبب التعصب والعجب.

وقال كرنيليوس فانديك في (أصول علم الهيئة):

كان فيثاغورس اليوناني معلم هذا الفن في مدرسة كروتونا في إيطاليا قبل الميلاد بخمسمائة سنة، ولم تعتبر تعاليمه مدة ألفي سنة إلى أن أحياها غاليلو من إيطاليا وكوبرنيكوس من بروسيا في القرن الخامس عشر والسادس عشر.

أما فكرة الجاذبية فهي أيضاً قديمة قال في كتاب (بسائط علم الفلك) [وهذا التفاعل بين الأجرام السماوية التي يطلق عليه اسم الجاذبية العمومية انتبه له بعض العلماء من قديم الزمان فأشار إليه بطليموس صاحب كتاب (المجسطي) حاسباً أنه هو الذي يحمل الأجسام تقع على الأرض متجهة نحو مركزها وهو الذي يربط كواكب السماء بعضها ببعض. ويقال إن موسى بن شاكر المهندس الذي نشأ في أوائل القرن الثالث الهجري انتبه له أيضاً وقال به. قال ابن القفطي أن موسى بن شاكر كان مهندساً مشهوراً من

١١ — من ذكرياتي في بلاد النوبة :

أصبع الانجليز في النوبة

للأستاذ عبد الحفيظ أبو السعود

قد يثير هذا العنوان العجب والدهشة في بعض النفوس التي لا تعرف شيئاً عن منطقة النوبة ، وربما يدفع بعضها إلى التساؤل الملح : وما صلة الانجليز ببلاد النوبة ؟ وأين مكان هذا الإصبع في تلك البلاد التي ليس فيها موضع لأجنبي ؟!

والواقع أن الغفلة مستولية على عقول كثير من ساستنا الذين لا ينظرون إلا إلى مواقع أقدامهم ، ولا يجشمون أنفسهم عناء التفكير فيما هو أبعد من ذلك ، ولا مشقة اليقظة والانتباه لما يراد بوادي النيل كله ، وما يكون دائماً وراء الأنباء الذائعة ، والأخبار الطائرة ، ولا يعرفه في الغالب كثير من الناس :

غفل بعض الساسة المصريين عن واجبهم الوطني ، حينما جعلوا من بعض بلادهم ، وأعني منطقة النوبة منفى للموظفين ، وأحكموا عقد هذه العقدة النفسية الأليمة ، حتى أن الموظف ليتولاه العجب العاجب حينما ينزل بهذه البلاد ، فلا يرى بها جديداً في أية ناحية من النواحي ، وأن كل شر سمع به لا أثر له على الإطلاق ، وربما يجد العكس ، كشهرة هذه المنطقة بالحشرات السامة ، والأفاعي القاتلة ... و ... و ... مما لم نجد فيه خلاف ما نعرف في مختلف بلدان القطر ، بل في كثير من بلاد الريف ما هو أجدر بحمل هذه الشهرة ، وأولى بذيوع هذا الصيت عنه ؟! ومما زاد الطين بلة ، أن كثيراً من أولى الأمر يهملون شأن هذه المنطقة سنوات فتظل مشروعاتها مهملة ، في زوايا النسيان ، مما كان له أكبر الأثر في كراهية الناس لهذه المنطقة التي تعتبر من أهم المناطق المصرية الكبيرة .

وإذا كانت السياسة البريطانية قد نجحت في شيء ، فإن نجاحها في تعمد إهمال منطقة النوبة ، وحمل الحكومات المصرية على هذا الإهمال — فاق كل نجاح ... إهمالاً جعلها كمنطقة طبيعية خامدة خاملة ، لا حياة فيها ولا حركة ولا نشاط ، حتى ليعتقد المار بها في طريقه من مصر إلى السودان ، أو العكس ، أنه منطقة قبور ، يدفن فيها الأحياء بدل أن يدفن الأموات ، وكم من موت خير من حياة كلها الجدب والألم ، والشقاء المر ، والعناء المميت ، وأنها فاصل طبيعي بين السودان ومصر ! .

وكأنما أرادت السياسة البريطانية بذلك أن تلقي في روع كل مشاهد لهذه المنطقة هذا الشعور الباطني العجيب ، وأن تتخذ من هذا دليلا على الفصل بين شقي الوادي ، جنوبه وشماله ، مصره وسودانه وأن تجعل ذلك حجة لها على تحقيق ما تبغي ، وإنفاذ ما تريد ، وهي دائماً تبني آمالها وأمانيها الكواذب على الخواء ، وتنسج العنكبوت ثم تمضي في طريقها الفاسد لتجعل من الظلم عدلا ، ومن الباطل حقاً ، ومن الوهم واقعاً محسوساً ، ولكن هذا وإن جاز في شريعة الماضي ، وقد سيطرت الغفلة على العقول ، ورانت على القلوب ، فلن يجوز في شريعة القرن الحاضر ، وقد انتبهت الأذهان ، وتفتحت العيون ، واستيقظت القلوب ، ونضج الوعي القومي ، حتى أصبح الابن يشارك أباه في السياسة ، ويعاونه على أداء الواجب ، ويتقدمه إذا دعا الداعي إلى ميدان الجهاد والنضال لا يعرف الوهن والضعف إلى نفسه سبيلا ، وهو بما يلاقي من الهول والشدة ، والحبس والتشريد ، جد سعيد وفخور ! .

منجمي المأمون) أقول ولوح ابن سينا في إشاراته ونصير الدين الطوسي وفخر الدين الرازي في شرحيهما لها . وكان هؤلاء يعبرون عن الجاذبية بين الكواكب بالشوق .

قال الإمام فخر الدين الرازي في شرحه :

وأما الشيخ (ابن سينا) فقد جزم ها هنا (في الإشارات) بأنه لابد وأن يكون لكل واحد منها (أي للكرات في الأفلاك) محرك خاص، لأن المتحرك بالاستدارة إذا ثبت أن حركته ليست إلا شوقية تشبهية ، وجب أن يكون الحال في كل الكرات كذلك . وأما قوله وتعلم أنه ليس يجوز أن يقال السافل منها معشوقه الخاص هو ما فوقه ، فمعناه ما تبين قبل ذلك من أنه لا يجوز أن يكون معشوق الكرة السافلة في حركتها الكرة العالية الخ ..

ضياء الدخيلي

ولئن غفل هذا الفريق المصرى عن نيات هذه الدولة العجوز الشمطاء ، اللعوب ، ذات الناب الأزرق الاستعمارى ، الأصيل فى التنكر والدس ، والخداع والرياء ، فلقد فهم الشعب على بكرة أبيه الآن حقيقة الموقف ، وأدرك ما يراد به ، وما يساق إليه ...

وفى بلاد النوبة مشروعات كثيرة نفذت بالفعل وآتت ثمارها أطيب ما تكون ، وكان لها فى نفوس النوبيين جميعاً أجمل الأثر وهناك مشروعات كثيرة تنتظر التنفيذ والعقيدة السائدة أن كل مشروع يكون نصيبه الإهمال والنسيان، لابد وأن يكون للانجليز إصبع فى وقفه وإهماله ، لأنهم لا يريدون رفاهية هذه البلاد ، ولا خيرها ، لأنهم آخر من يستفيدون منها ، ولأن القلب النوبى يكره الانجليز كراهية تملك عليه نفسه من جميع نواحيها ، ويدرك تمام الإدراك أن الانجليزى عدو بلاده رقم (١) وأنه خطر ليس بعده خطر ، وأنه شر فى كل مكان يحل به ، والسر فى ذلك يجهله كثير من المصريين ، والقليلون يعلمون أن الانجليز فى وقت ما ، حينما اشتدت بالنوبيين الأزمات ، وضاقت بهم سبل العيش ، بسبب التعلية الأخيرة ... انتهز هؤلاء الانجليز الأوغاد ، عن طريق أذنابهم — الفرصة ، وحاولوا اجتذاب قلوب النوبيين إليهم ، وربطهم بعجلة الامبراطورية بحجة صلتهم الوثيقة بأهل السودان ، فإن مديرية دنقلة بأسرها تعتبر منطقة نوبية صحيحة من قديم الزمان ، ولمع الذهب ، وأعشى بريقه العيون، وامتدت الآمال والأمانى الخوالب ، ولكن قلوب النوبيين لم تتحرك لهذا البريق ، وعيونهم لم يعشها هذا اللمعان ، وكان الجواب المفحم أنهم حراس النيل من فوق هذه القمم الشوامخ ، التى تشبه عزة نفوسهم ، ونبل أخلاقهم ، على الرغم من ضيق ذات اليد ، والمبيت على الطوى فى أغلب الأحيان .

وتلقى الانجليز هذا الدرس القاسى ، وعلموا أن الذهب ليس هو كل شىء ، وإن سياستهم لم يكتب لها النجاح على طول الخط ولهذا أدركوا وطنية هؤلاء ... الوطنية الحقة ، التى لا يتم عنها كلام منمق معسول ، ولا عبارات خلابة ، ولا أحاديث مستفيضة ولا خطب حماسية ، ولا مقالات تفيض بها أنهار الصحف والمجلات ، وإنما هو شىء أسمى من هذا وأجل ، هو العمل والصبر والجلد ، والإخلاص ، وحب مصر والمصريين ، واحترام القانون إلى حد يثير الدهشة والعجب ، ويكفى أنه قد ينقضى العام بأسره دون أن تقع جناية فى بلاد النوبة كلها على الرغم من امتدادها خمسين وثلاثمائة كيلو متر » فأين نجد هذه الوطنية الصادقة ، والهدوء الجميل ؟!

لقد كان الإنجليز يريدون النوبيين على تشجيع الحركة الانفصالية عن مصر ، التى أهملت أمرهم ، ونسيتهم فى قفارهم وصحاريهم » وبذل الانجليز الوعود الخلابة لإحالة منطقة النوبة إلى جنة تجرى من تحتها الأنهار ، وأنفاذ جميع المشروعات الممكنة وغير الممكنة لتكون هذه البلاد حافلة بالثمار الناضجة ، والزهور اليانعة . يتدفق على أهلها الخير من كل حدب وصوب ، ولكنهم بحمد الله باءوا بالفشل ، وكان نصيبهم الخذلان الأليم ... ومن عجب أن أمر هذه المحاولة لم يكتب له الفضيحة كما يجب . وإنما ظل سراً لا يعرفه إلا القليلون من المصريين ، لأن النوبيين لا يرون فيما فعلوا مكرمة يستحقون عليها المدح أو الثناء ، بل هو الواجب الذى لا شكر عليه .

ومما يؤسف له أن كثيراً من الأخطاء تقع كل عام فى الوزارات ... الأخطاء الوطنية التى يحزن لها قلب الغيور ... فمن ذلك ما حدث معنا عام ١٩٤٦ بخصوص استمارات السفر إلى عنيبة ، وجهل الموظف المختص بأمر هذه الاستمارات ، وهل تكون من حق موظف عنيبة أم لا ، وطال الأخذ والرد بيننا ، وأخيراً صرف لنا استمارات إلى الشلال فحسب ، لأنه يعتقد أن الشلال نهاية اختصاصه ، وأننا ملزمون أن نأخذ الاستمارات الباقية من منطقة قنا التعليمية ، إذا كان فى وسعها هى الأخرى أن تصرف استمارات أبعد من الشلال .

وإذا اغتفرنا لهذا الموظف هذه الغلطة ، فهل نغتفر لموظف آخر بالوزارة نفسها غلطة أفظع وأعنف ؟ لقد ذهب أحد الزملاء بعد تعيينه إلى وزارة المعارف ليأخذ استمارات سفره إلى عنيبة أيضاً ، وما كان أشد عجبه عند ما فاجأه الموظف المختص بطلب تقديم ترخيص للموافقة عليه من الجهات المختصة فى مصلحة الحدود . فقال : لماذا ؟ فأجاب الموظف : لأن عنيبة خارج الحدود المصرية ، فلا بد من جواز السفر إليها ؟!

وبهت الزميل ، وحاول أن يفهم الموظف حقيقة الأمر ، وأن

فى الطـــائرة

للأستاذ نجاتى صدق

كان المسافر من فلسطين إلى سوريا فى الزمن الغابر يشعر بأنه مقدم على رحلة محفوفة بالمناسمات والمخاطر ، فيقطع المسافة الطويلة إلى عكاء بالدجانس ، ثم يستقل حماراً ويجتاز به معبر الناقورة ... ثم يتابع السفر بدجانس آخر .

وكان معبر الناقورة هذا طريقاً جبلياً ضيقاً ، يقوم على أحد جانبيه جبل شاهق ، وتترامى على الجانب الآخر هوة سحيقة تنتهى إلى صخور مسننة يداعبها البحر الأزرق العميق مداعبة هادئة ، فإذا ما نظر إليها المسافر الراكب شاعت فى نفسه موجة من الهلع ، وفضل اجتياز المعبر سيراً على قدميه ... أو زحفاً على أربعته .

ثم يصل المسافر المدينة التى يقصدها ، ويقص على أهله وذويه ما لاقاه من أهوال أثناء رحلته الشاقة ... ولا يفرب باله طبعاً عن أن يروى لهم وقائعه مع قطاع الطرق ، وفتكه ليلا بالضباع التى ينبعث الشر من أعينها ، وبطشه نهاراً بالذئاب الجائعة ذات الأنياب الحادة والمخالب الجارحة .

هكذا كانت مشاق الأسفار فى الأيام الغابرة ، أما مشاقها فى أيامنا هذه فإليك ما حدث فى الطائرة :

كنت مرة مسافراً فى الطائرة من اللد إلى حلب ، وكان الفصل شتاء ، وكانت الطائرة تقل شخصين فقط هما أنا وتاجر أغنام يدعى أبا محمود ، وهو رجل فى حدود الخمسين ، طيب القلب ، يلبس القمباز ، ولا ينفك عن مداعبة حبات سبحته العقيقية .

وبعد أن قطعنا مسافة فى الطائرة حدث ما أثار دهشتى ... رأيت تاجر الأغنام وقد انكمش على نفسه ، ممتقع اللون ، زائغ البصر ، فاغر الفم ، مشنج اليدين .. فدنوت منه وسألته : ما بالك يا رفيق الطريق ؟...

فأجابنى بصوت بكاء : أريد النزول ! ...

قلت : هذه طائرة وليست سيارة ، ولن تتمكن من النزول

عنيبة ليست خارج الحدود ، ولكنه نظر إليه شذراً فى شىء من التعالم المقيت ، فلم يجد الزميل بدا من الرضوخ لما أراد ، وقدم الطلب المراد ، وأخذ مجراه ، وانتقل من مكتب إلى مكتب ، دون أن يفطن أحد إلى هذا الخطأ ، حتى وصل إلى يد أحد الرؤساء بالوزارة ، وكان رجلا ذكياً يعرف الكثير عن عنيبة ، فأمسك بالطلب ، وأطال النظر فيه ، وبدا الاستياء على وجهه ، ثم نادى الموظف الذى أشار به ، وافهمه حقيقة الأمر ، وأنحه بقسط كبير من اللوم والتعنيف ، فما يجدر بموظف أن يجهل حقيقة عمله ، وإن جهل حقيقة بلاده !

وأرمنا بلدة فى بلاد النوبة بين توشكى وأبى سمبل ، وحدث أن أرسل إليها أحد موظفى وزارة الصحة بعض الأوراق ، الخاصة بطبيب المركز أى مركز عنيبة ، بيد أن هذا الموظف كتب على الظرف (السودان) فذهبت الأوراق إلى السودان ، ثم ردت إلى الوزارة مرة أخرى بعد ما كتب عليها موظف الحكومة السودانية أن هذه البلدة ليست فى السودان وإنما هى فى منطقة النوبة التابعة للحكومة المصرية واتبع هذه العبارة بمجموعة من علامات التعجب والاستفهام ، التى معناها أننا معشر المصريين لا نعرف بلادنا » .

هذه الأخطاء التى أسميها أخطاء وطنية ، تقع فى شتى الوزارات ، ومختلف دور الحكومة كل عام ، وهى إن أحزنت الوطنى الغيور ، فإنما يطرب لها المستعمر الغاصب ... لأنه يرضيه أن يرى كل مصرى منصرفاً عن خير بلاده ، ومصلحة أمته إلى لذاذاته ومسراته ، ويسره جهل الموظفين بما لا يصح أن يجهلوه ويزيد فى سعادته أن يرى القلق بادياً فى وجوه الموظفين فى بلاد النوبة ، ولهذا يتألم الإنجليز لعمران هذه المنطقة بالغ الألم ، ويسوءهم أن تتجه الحكومة المصرية بالإصلاحات الشاملة فى هذه البلاد ، وبخاصة فى هذه الأيام ، لأن إصلاح منطقة النوبة يصل ما بين مصر والسودان برباط وثيق ، ويقرب هذه الشقة التى عمل الانجليز على اتساعها ، ولكن الله سيحبط مساعيهم حينما نخاطبهم باللغة التى يفهمونها ، وإن غداً لناظره قريب .

عبد الحفيظ أبو السعود

إلا فى مطار حلب ... الأول مرة تصعد فى الجو ؟ .

قال : نعم ... لأول مرة يالشقاقى .

قلت : لا تخف ، فبعد ساعتين سنصل إلى حلب ... أنظر إلى أسفل ، ها نحن نجتاز رأس الناقورة ... فتطلع تاجر الأغنام من النافذة ... وحدث فى هذه البرهة أن هبطت الطائرة فى فجوة هوائية ، فانتفض رفيق ، واسترخى على مقعده ، وراح يؤنب نفسه قائلاً : « أجننت يا أبا محمود ... مالك وركوب الطائرة ... سافر فى السيارة ... أو فى الدلجانس ... الله يرحم أيام الدلجانس ... أو على حمار ... أو مشياً على قدميك ... ولكنك تريد السرعة ، والآن ستكلفك هذه السرعة حياتك ... يالك من شقى جاهل يا أبا محمود » ... (وأخذ يبكى) .

ولما دخلت طائرتنا وسط غيوم كثيفة رفع تاجر الأغنام ناظريه إلى وقال : أين نحن الآن ؟ ..

قلت : وسط الغيوم .

قال : فى السماء ؟ .

قلت : نعم .

قال : فى أى سماء ؟ !

قلت : اجتزنا السادسة وعلى وشك الدخول فى السابعة !

فصرخ بأعلى صوته : الله أكبر ... الله أكبر ... الله أكبر ! ...

ثم ارتجت الطائرة فجأة ومالت إلى اليمين ، ثم انحرفت إلى اليسار ... ثم هوت فى فجوة هوائية بعنف ... فشددت الحزام على وسطى ... أما تاجر الأغنام فكان يتمتم قائلاً : اللهم اغفر لنا ذنوبنا ، ولا تجازينا إن أسأنا أو أخطأنا ، اللهم ادخلنا فى زمرة عبادك الصالحين ، آمين يا أرحم الراحمين .

ثم التفت إلى وقال : أبنائى أمانة فى عنقك !

قلت : وماذا تعنى بذلك ؟ ...

قال : أبنائى ليس لهم من معيل غيرى ... أستحلفك بالله أن تتردد عليهم دائماً ، وأن تمد لهم يد المونة إذا ما احتاجوا لها لا سمح الله ... دعهم يبيعون الأغنام أو يقتسمونها فيما بينهم ... وقل لأم محمود بأن تكرس حياتها فى تربية أولادها ... آه إنى أشعر بدنو الأجل ! ...

قلت : ولكن إذا أصيبت الطائرة بكارثة فسيقضى علينا معاً !

وارتجت الطائرة ارتجاجاً عنيفاً ، ثم هبت علينا عاصفة مصحوبة بالرعد ، والبرق ، والأمطار ، فخلقت بنا الطائرة عالياً ، وكانت أثناء تحليقها هذا تهوى بين حين وآخر فى فجوات جوية .

وفى هذه اللحظة أطل علينا عامل الراديو من كوته وناولنى ورقة فلم أطلع على مضمونها لاعتقادى أنها تحدثنا عما قطعناه من مسافة وما تبقى منها لنصل إلى حلب ... أما رفيق تاجر الأغنام فكان مستلقياً على مقعده مغمض العينين ، متهدل الشاربين ، مرتخى اليدين .

وهبطت بنا الطائرة فى مطار حلب ، وأبو محمود لا يزال يعتبر نفسه فى عداد الهالكين ... فهززته قائلاً : إنهض أيها الرجل لقد وصلنا ! .

ففتح عينيه الذاهلتين وقال : أين نحن الآن .

قلت فى حلب .

فنزلنا من الطائرة ، وسمعت تاجر الأغنام يقول : هذه هي السفرة الأولى والأخيرة بالطائرة ... لقد نجانا الله ! .

فضحكت منه ، وربت على كتفه ، وافترقنا .

ولما بلغت النزول فى حلب ، أخذت أتفحص ما فى جيبى من أوراق ، فعثرت على ورقة عامل راديو الطائرة التى ناولنى إياها ونحن نجتاز الزوبعة .. وقرأت فيها :

« نطير الآن على ارتفاع أربعة عشر ألف قدم .. لقد تعطل أحد محركى الطائرة ! نجتاز زوبعة عنيفة . شد الحزام على وسطك إذ ربما نضطر إلى الهبوط فى أى مكان ! . »

والحق يقال إننى ما كدت أنتهى من قراءة هذه الورقة حتى أحسست بقشعريرة تنتابنى من قمة رأسى حتى أخمص قدمى . ومرت بى فترة من الزمن تعرضت فيها إلى ذات الرعب الذى تعرض له تاجر الأغنام وهو فى الطائرة .. ثم رحت أسائل نفسى : هل تنبأ عقل تاجر الأغنام الباطن بما لم يتنبأ به عقلى ؟ . وهل كان لرعبه علاقة بشعوره مقدماً بكارثة كادت تقع ؟ ! .

نجاتى صدقى

دراسات تحليلية :

ذو النـــــون المصرى

للأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

بين ضفاف النيل ورمال الصحراء فى بلدة أخميم بمديرية جرجا من أعمال صعيد مصر ، ولد أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم ذو النون المصرى سنة ١٨٠ بعد الهجرة ، وكان أبوه نوبياً جىء به من بلاد النوبة رقيقاً ثم أعتق . ونشأ ذو النون تهب عليه نسائم النيل الرطبة ، وتلفح وجهه رياح الصحراء الجافة ، كلاهما تحمل أسراراً غامضة وتوحى بعظمة الكون وخالقه ، وبين قوم محدودى المعارف ضيق أفق التفكير ، قضى أيام صباه .

فلما شب عن الطوق واتسعت مداركه ، ضاقت نفسه الكبيرة بهذا الجو الخانق المحدود ، فلم يجد سوى الخرائب المصرية يطوف بينها من بلدة إلى أخرى يدرس رموزها ويحاول حلها والوصول إلى أسرارها — وقد كان هذا الطواف المحدود عاملا من عوامل حبه التنقل بين بلدان العالم الإسلامى سعياً وراء بحثه عن الحقيقة ودراسته الصوفية — ولما لم يجد بين هذه الخرائب ما يشفى غليل نفسه ، راح ينشد الهداية فى جوانب الصحراء الواسعة علّه يصل إلى طلبته من المعرفة والعلم . وفيما هو فى حيرته ، سمع بسعدون الصوفى المصرى ، فذهب إليه وسمع منه فسحره حديثه وأشرب قلبه محبته ؛ فلقد وجد بعد العناء والتعب بغية نفسه وأمله المفقود ، وتتلمذ عليه ، ودرس الصوفية على يديه ، وسرعان ما أعجب الأستاذ بفصاحة تلميذه فقربه إليه وآثره بصحبته . وبجانب توفره على دراسة الصوفية كان يدرس الطب والكيمياء وعلوم السحر .

وذات يوم عاد إلى إخميم فوصلها ليلاً وسمع دفوفاً تضرب وشاهد قوماً يلهون ، فسأل ما هذا ؟ فقيل له عرس . ثم سار قليلا فسمع نواحا ورأى نسوة يندبن ، فسأل ما هذا ؟ فقيل له فلان مات . فقال : أعطى أولئك فما شكروا ، وابتلى هؤلاء فما صبروا . لله على ألا أبيت بهذا البلد . وانطلق لايلوى على شىء ، ترفعه رابيه ويخفضه واد ، هائما ينشد المعرفة ويبغى الوصول حتى بلغ بيت الله الحرام وزار القبر الشريف ، ثم تابع سيره إلى دمشق وزار كثيراً من النساك المقيمين فى جنوب إنطاكية ، وسالمهم وسمع منهم . قال « زرت فى لبنان رجلا نحيفاً ضعيفاً يصلى . فسلمت فرد السلام وما زال فى ركوع وسجود حتى صلى العصر ، ثم جلس ولم يتكلم ، فطلبت منه أن يدعو لى فقال : آنسك الله بقربه . فطلبت منه المزيد ، فقال : من آنسه الله بقربه أعطاه أربعا . عزا من غير عشيرة ، وعلماً من غير طلب ، وغنى من غير مال ، وأنسا بغير جماعة . ثم شهق فلم يفق إلا بعد ثلاث وأنا منتظر ، فلما أفاق قال : انصرف عنى بسلام . فقلت أوصنى قال : أحبب مولاك ولا ترد بحبه بدلا » .

عاد إلى مصر وقد روى ظمأه ، وأخذ ينادى بتعاليمه بين قوم ران الجهل على قلوبهم وعميت بصائرهم فما يفقهون قولا — وكان أول من تكلم عن علوم المنازلات ، فأنكر عليه أهل مصر هذا واتهموه بالزندقة والخروج عن الدين لأنه لم يكن لهم بهذا العلم عهد ، فقالوا أحدث علماً لم تتكلم فيه الصحابة(١) — فاضطهدوه وسموا به إلى الخليفة المتوكل ، فبعث إلى عامله على مصر فأرسله إليه ، فألقى به فى السجن . ولكن أصدقاءه وتلاميذه طلبوا له العفو من الخليفة وما زالوا به حتى أخرجه من السجن ، وجمع العلماء ليناظروه . وتحدث أبو الفيض وتحدث العلماء فما زال كلامه يعلو وكلامهم يهبط حتى صمتوا جميعاً وتحدث وحده . ثم وعظ الخليفة ، فبكى بكاء مراً وندم على سجنه وقال : إذا كان هذا زنديقاً فما فى الأرض مسلم . ورده مكرماً . فدوى اسمه فى الآفاق وأقبل عليه الناس من كل صوب وحدب يلتمسون العلم عنده ويطلبون الرشاد على يديه .

* * *

وكان يعلم تلاميذه التوبة ويلقنهم كبح جماح النفس والاقلاع من الغواية . وقد كان يفرق بين توبة الإنابة التى ترجع إلى خشية العقاب والخوف منه ، وبين توبة الاستحياء التى تستند إلى الاستحياء من رحمة الله سبحانه وتعالى . وكان يقول التوبة ثلاث : « توبة العوام وهى التوبة عن المعاصى ، وتوبة الخواص وهى التوبة عن الإهمال ، وتوبة المعرفة وهى التوبة التى تمنى الإعراض

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ١-

من كل شيء سوى الله » .

ومن تعاليمه عن الروح أن النفس هي العقبة الكأداء في سبيل الكمال الروحي لأنها خاضعة لرغبات النفع الذاتي ، ولذلك وجب على المتطلع إلى الله أن يحارب نزواتها ويتغلب عليها . ولما سئل عن الحجب الموجودة بين الله والروح هو أعظمها أثراً في إخفاء رؤية الحقيقة قال : « أخفي الحجاب وأشده رؤية النفس وتدبيرها »

ويقول إنه يمكن عن طريق كبح جماح النفس تخليص الروح من العقبات النفسية وإعادتها إلى أصلها الأول من الطهارة والنقاوة فتعود إلى اتصالها بالله .

فالعودة إلى الله لابد من تطهير النفس من الشرور وكبح جماحها عن الرغبات ومن أية صلة أخرى غير الصلة بالذات العلية ومن تعاليمه في ذلك : « لا تصحب مع الله إلا بالموافقة ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ، ولا مع النفس إلا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان إلا بالمعاداة » .

وذل النفس ضروري للروح التي تأمل في أنس الله والقرب منه ، فكلما ازداد العارف في إذلال نفسه وإخضاعها ازداد قرباً من الله ، فيقول « وما أعز الله عبداً بعز ، أعز له من أن يدله على ذل نفسه » لأن المريد عندما يبصر القوة السماوية وتتملكه عظمة خالق السموات والأرض يدرك كم هو ضئيل بالنسبة لهذه القوى فيمتلئ تواضعاً .. وفي ذلك يقول ذو النون « من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله تعالى فإنها تذوب وتصفو . ومن نظر إلى سلطان الله ذهب سلطان نفسه ، لأن النفوس كلها فقيرة عند هيبته وجبروته » .

* * *

وكانت المعرفة أهم الموضوعات من تعاليمه ، فهو أول الصوفيين الذين تعرضوا للكلام عنها . ومن تعاليمه في المعرفة أن المعرفة بالله ثلاث ، أولاها معرفة التوحيد التي هي ملك المؤمنين جميعاً . وثانيتها معرفة الحجة والبيان وهذه هي معرفة الفلاسفة وعلماء الدين . وثالثتها معرفة صفات الله وهي معرفة أولياء الله الذين يتأملون الله بقلوبهم فيكشف لهم عما لا يكشفه للآخرين فيقول : « علامة العارف ثلاث : لا يطفئ نور معرفته نور ورعه

ولا يعتقد باطناً من العلم ما ينقض عليه ظاهراً من الحكم ولا يحمله كثرة نعم الله تعالى عليه ، وكرامته على هتك أسرار محارم الله تعالى » .

والمعرفة تقود إلى الحيرة ، ولكنها حيرة على نوعين : حيرة العامة وتؤدي بأصحابها إلى الزندقة والضلال ، وحيرة الخاصة وهي تتسبب عن الاكتشاف ، فهي الحيرة التي تدوم وتبقى . وفي ذلك يقول « التفكر في ذات الله تعالى جهل ، والإشارة إليه شرك ، وحقيقة المعرفة حيرة » .

وكما أن المعرفة تؤدي إلى الحيرة فهي كذلك سبيل الاتحاد بالذات العلية ، وفي ذلك قال : « إن لله عباداً نصبوا أشجار الخطايا نصب أعينهم وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندماً وحزناً فجنوا من غير جنون ، وتبلدوا من غير عي ولا بكم ، وإنهم لهم البلغاء الفصحاء العارفون بالله وبرسوله ، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ، ثم تولهت قلوبهم في الملكوت ، وجالت فكرهم بين سرايا حجب الجبروت واستظلوا تحت رواق الندم وقرأوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا ، واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة ، وسرحت أرواحهم في العلى حتى أناخوا في رياض النعيم وخاضوا في بحر الحياة وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة ، وركبوا في سفينة الفطنة وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العزة والكرامة »

وتحدث ذو النون عن أسفاره التي كان فيها ينشد سبل الخلاص من شوائب الحياة وأكدارها قال : « لقد حصلت في أول أسفاري علماً رضي الخاصة والعامة ، وحصلت في ثانيها علماً رضي الخاصة دون العامة ، وفي ثالث أسفاري حصلت من العلم ما لم ترض به لا الخاصة ولا العامة ، فغدوت شريداً طريداً. لقد حصلت من العلم في المرة الأولى التوبة وهي مقبولة لدى الخاصة والعامة على حد سواء وفي المرة الثانية وصلت إلى التوكل على الله ومعاملته ومحبته وهي شئون تتقبلها الخاصة ولا تتفهمها العامة ، وفي المرة الثالثة وصلت إلى الحقيقة التي تسمو على العلم والعقل

بعد الامتحـــــان ...!!

للأديب الطاهر أحمد مكي

ماذا أصنع ؟ ، وإلى أين أتجه ؟ ، وفى أى المعاهد أنتسب ؟ ، ومن أى الثقافات أرتوى ؟ ... أسئلة حائرة تتراقص على لسانى ، وخواطر قلقة تماوج فى جنانى ، وآمال واســـعة يضيق بها صدرى ، ويعجز عنها بيانى ؟ ...

أنا أريد المعهد الذى يربى الروح وينشىء البـدن ، ويساير الحياة ، ويراعى تطور الزمن ، . . وأنا أفتش عن الأسـتاذ الذى يوجه ولا يستأثر ، ويرشد ولا يقيد ، ويرسم المنهج ، ويحدد الهـدف ، ولا يدخل فى التفاصيل ، ولا يتمسـك بالجزئيات ، ليجعل شخصه فوق الأشخاص ، وعقله سيد العقول ، ورأيه أكمل الآراء ! ...

* * *

قالوا أمامك كلية اللغة ، بها نشأت العربية ، وفى أحضانها ترعرعت ، وعلى هـدى منها تطورت ، ولعلك واجد هنـاك ما يرضى ذوقك وفنك ، ويشبع رغبتك وهوايتك ، ويصعد بك فى معارج من السمو البلاغى ، تتيح لك لذة لا تعدلهـا لذة ، ومتاعاً لا يعدله متاع ! . . .

واسترجعت نفسى ، واستأنيت فـكرى ، ولم أصدق ما قالوا فأنا أعرف بالأزهر ، وألصق بشيوخه ، وأخبر بمناهجه ، وأعـلم بطلابه ، وهم جميعاً ليسوا فى شئ مما يصفون ، وإن بدت ظواهرهم لماعة خداعة ...

فـكلية اللغة قالوا لها يوماً ، كونى على العربية حارساً ولها رائداً ، ثم باركوها بالعناية ، وغذوها بالرعاية ، وحبوها بالجاه ، وعززوها بالإيثار ، وجعلوها مطمح الأنظار ، واستخلصوا لها من الطلاب أنجبهم وأمكنهم ، وأغزرهم ثقافة وعلماً ... ومضت عجلة الحياة مندفعة إلى الأمام ، مسرعة الخطـا ، فأصاب التطور والتقدم شتى مرافق مصر ، ولـكن كلية اللغة لم تؤت ثمارها ، ولم تبلغ أكلها ، ولم تحقق أمل الناس فيها ، فتوارت عن الأنظار ذلك لأن المشرفين عليها بالأمس واليوم ، جعلوا من عقول بنيها آلات لرصـد الآراء ، ومذكرات لتـدوين الحواشى ، وسجلات لحفظ الهوامش ، وحفظة على كتب الأوائل ، غثها وسمينها ، خبيثها وطيبها . . . ثم قالوا لهم ، هذه حدودكم فـلا تتخطوها ، وتلك آراؤهم فلا تناقشوها ، فوجد الطلاب أنفسهم مضطرين لدراسة قواعد لا تتمشى مع الذوق ، ولا تستقيم مع المنطق ، ولا تنهض على أسس سـليمة من الفـكر الصحيح والنظر السليم ، والرأى الثاقب ، والبحث العميق ، وتصطدم مع واقع الحياة اصطداماً مراً ، ثم وجدوا أنفسهم مسيرين فى إضفاء القداسة على أشخاص المؤلفين ، لا ينقص لهم رأى ، ولا تنقض لهم قاعدة ، مع أنهم بشر أياً كانوا ، يخطئون ويصيبون على السواء فـكان الإيمان المطلق ، وما أكثر ما يجنى الانقياد الأعمى على حقائق الأشياء !

وأنا حين أعرض لهذا المعهد بمثل هذه الصراحة ، لا يعنينى غل فى النفس أو مرض فى الرأى ، أن أعترف أن فيما يدرس هناك ، كتباً لها قيمتها واعتبارها ، ولها مكانها فى عالم البلاغة والأدب ، ويرجى منها كبير فضل لو أتيح لها المدرس الصالح ! .

ولـكن ، أين هو المدرس الصالح ؟! . . وقد أفقدت السياسة الأزهر صوابه ، فاضطربت فيه مقاييس الأخلاق وموازين الرجال وجعلت منه مجالاً فسيحاً لنعرة العصبية ، وشحناء الحزبية ، فملأ أناس مكانهم فى الحضيض ، وفات الركب آخرون كانت النصفة تقضى ، أن يكونوا فى مقدمة الصفوف ، ولا يرجى من تافه عـلا نفع ، ولا من عزيز امتهن فائدة ! ... والعربية فى كلا

فأعرضنا عنها ولم يتفهماها » .

لقد كان ذو النون فى بادىء الأمر متنسكا ينشد الوحـدة ويبتغى العزلة ، ليدرب نفسه على كبح رغباتها حتى تغلب عليها ، فسـار فى طريق التوبة والتطهر حتى من الله عليه بهبة المعرفة فأصبح فى آخر الأمر صوفياً عارفاً بالله . وقد وافاه الأجل بمدينة الجيزة سنة ٢٤٥ للهجرة . ومما روى عن جنازته أن كان الطير تتجمع فى السماء وتظلل نعشه . وأنه بعد وفاته ظهر على قـبره مكتوب : ذو النون حبيب الله ، من الشوق قتيل الله .

(أسيوط) عبد الموجود عبد الحافظ

الحالين هي الخاسرة ، والطلاب هم الضحايا ! !

وإذا كانت الصراحة رائدي ، فأنا أجد في نفسي الشجاعة لأقول : أن هيئة التدريس في كلية اللغة أجالاً ، لا تتناسب وجـلال المعهد وعظمة رسالته ، وما يرجو له المخلصون من بقاء ودوام . ولست أعرف فيما أذكر من كليات مصر والعالم ، أن هيئة تدريس جامعية ، لا يجيد أساتذتها أكثر من لغتهم التي ولدوا بها ، غير كلية اللغة ، وتلك نقيصة ما كنت أحب أن يوصموا بها ، في عالم أضحى كتلة واحدة ، وتلاشت فيه الحدود والحواجز ، ولم يعد في طوع شخص مثقف ، أن يستقل فيه بفكره وآرائه ، بعيدة عن مؤثرات الفكر وتياراته العالمية ! . .

وتستطيع أن تلمح أثر هـذا التقصير واضحاً ، في متابعة ما يؤلف من كتب ، وما يصدر من صحف ، وما ينشر من بحوث وما يدور من مناقشات ، هل تحس لهم كلمة ، هل تسمع لهم رأياً ؟ سؤال ما أظنه يحتاج إلى جواب !

كان في وسع الأزهر أن يتلافى هـذا النقص ، وأن يدفع عن نفسه هذه المعرة ، لو مد يده إلى الأدباء والمفكرين ، ممن بنوا مجدهم العلمي على أسس متينة ، وبجهاد مضن ، وما عليه من بأس ، فكل جامعات العالم تسد نقصها . لما تجد من أساتذة متخصصين أنى وُجدوا . والعالم لا وطن له ، والحقيقة واحدة ، وإن تعددت المذاهب والأجناس والأوطان !

ولكن . . لأمر ما ، رفض شيوخنا أن يعترفوا بالنقص ولغيرهم بالفضل ، فآثروا السكوت والعزلة ، وضربوا حول أنفسهم حاجزاً حصيناً ، وأقاموا دون العالم سداً عالياً ، لا ينفذ منه شعاع الفكر الحديث ؛ ولا يخترقه صدى المعرفة الحقة ، لا يتقدمون ولا يتطورون ، ولا يؤثرون ولا يتأثرون ... وتلك طلائع الموت وبشائر الانحلال !

* * *

وهمس في أذني آخرون ، يستحثونني في اللحاق بدار العلوم وينسبون لها من المزايا والفضائل ما عرفت وما لم أعرف ، ومن يدري فقد لا أعرفه أبداً ، لأنه ليس هنـاك ، وإنما هو وليد التعصب الأعمى ، والخيال المغرض ! ...

قالوا إنها مهذبة منظمة ، مرتبة منسقة ، سخية في المـال ، شهية في الطعام ، لن تجد في دراستها تعباً ولا نصباً ، ولا رهقاً ولا وصباً ، ووجدتني أدير ظهري مرة أخرى ، فأنا عارف بما هناك

قد تكون دار العلوم جميلة المبنى ، لطيفة الموقع ، نظيفـة المظهر ، لامعة البناء ، فاخرة الرياش ، ولـكنها وا أسفاه أيضاً ! أزهرية التفـكير ، جامدة الشعور ، لا تربي دراسـتها فناً ، ولا تعلي ذوقاً ، ولا ترهف حساً ، ولا تنمي خيالاً ، وإنمـا تنتج مدرساً صالحاً طيعاً ، لحفظ القـانون ، ويجيد قواعد التربية ، ويطبق منشورات الوزارة ، ويحسن حفظ النظام في صفوف التلاميذ ! ...

* * *

لن أذهب إلى الأزهر ، لأني سأكون أكثر من أستاذي علماً ، وأوسع ثقافة ومعرفة ، فأنا أجيد لغة ، وفي طريق لإجادة الثانية ، وهو لا يعرف إلا واحدة ؛ وأنا ألم بالحركة الفكرية الحاضرة ، ممثلة في الصحافة والإذاعة والمحاضرة ، وهو ليس على شيء من ذلك ... ولن أذهب إلى دار العلوم ، لأنها مصنع مدرسين ، وأنا لا أريد أن أصبح مدرساً ناجحاً ، بقدر ما أحرص على أن أكون مفكراً حراً ، ولا أحرص على شيء أكثر من حرصي على المعرفة الطليقة ، التي لا تتأثر بالمذاهب والأشخاص ، قدر تأثرها بالمنطق والإقناع ! ...

ولا يعنيني من الحياة ، إلا أن أعيش مع أولئك الخالدين من عباقرة الإنسانية في مختلف فنونها ، مصورين ومثالين ونحاتين وأدباء وشعراء وموسيقيين ، ممن أعلوا من قيمة الإنسان وقدره وجعلوه جديراً بما أكرمه من الخالق من مزايا وصفات ! ..

* * *

بقيت كلية الآداب ... وهي ثرية مترفة ، ناعمة مرهفة ، تتأفف عن أمثالي ، من اللاهين في دنيا الجاه والمال ، الفقراء في عالم السادة والسلطان ، فهي تقيم الحواجز ، وتصنع العقبات . ولعلها ثائبة إلى رشدها يوماً ... عافاها الله !

وبعد ... فأين أكمل تعليمي ، وفي أي معهد تستقر روحي ، وعلى أي أساس أختط نهجي ؟ ...

أنا حائر ... فهل عند أحد من جواب ؟ !

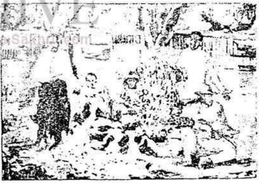
الطاهر أحمد مكي



«الاتجاهات الفنية الحديثة» (*)

للأستاذ محمد بك ناجي

يشاء الله لنا أن نعيش ليختبرنا بهذه الأوقات كي نستحق مصيراً أجل وأعظم. لهذا حشدنا جميع قوانا في خدمة غرض نبيل، وانبعثت همتنا للكفاح في جميع الجبهات في نفس الوقت. فلنزد من هـذه القوى، ولنضاعف وثباتنا، فليس في حوزة الفرد أكثر ما تجمع له من الوسائل. ولقد ظلت الروح أبداً مكرسة للنصر.



تجار الجلود في الحبشة — من تصوير محمد بك ناجي
(عرضت في معرض البندقية الدولي للفنون الجميلة)

انظروا إلى الحرب الأخيرة وتساءلوا عما إذا كان جنود الأمم المتحدة قد تجردوا من تذوق الجمال الذي كان يسري في مظاهر فنهم بمدينتنا القاهرة. لكي يكلل السلاح بالنصر لا يكفي صوت المدفع وحده؛ فإن الحلفاء قد عبأوا مصوريهم ومثاليهم ليعبروا عن حيويتهم. قد دعيت مصر للاشتراك في معرض البندقية الدولي للفنون الجميلة، وهو حلبة سبق أوربية يضرب كل فيها بسهمه. ومصر ساهمت بجرأة بدورها في هذا المضمار. حقاً أنها وصلت إلى الصفوف الأولى وهي تلهث؛ ولكنها أقرت مكانتها في مجمع الأمم. وإنا لنتقدم بشكرنا إلى إيطاليا صانعة السلام الذي يوفق عن طريق الفن بين المصالح المتضاربة المتباينة.

في البندقية، المدينة الغناء، التقت جميع الأمم. وقد ظفرنا بمثل هذا الامتياز أثناء الحرب؛ وبعدها احتفظت به القاهرة فأمست عاصمة الفنون في الشرق الأوسط، وظلت حريصة على هذا التقليد ومن أجل هذا ستحظى إيطاليا التي تنزلنا اليوم بجناحها الفخم بنفس حقوق الضـيافة في قصر المعارض بالقاهرة، في العام القادم.

وقد شئت أن أحدثكم عن مدنية أوربية باهرة يقول البعض آسفاً إن الشيخوخة قد دبت فيها — ومعرض البندقية يقدم إلينا صورة جلية. قد تثير أسباب الكوارث قلق المؤرخين؛ ولكن



قافلة من الحمير — من تصوير محمد بك ناجي
(عن معرض البندقية)

العلوم الزاخرة، والحرية الوافرة، والفردية الواسعة، ثم الكبرياء، والرغبة العابثة في خلق عالم مجرد من الطبيعة لا تقلقنا، ولكن فضيلة التواضع التي تنقص الفنان هي الباعثة على انحلال فنه.

وإمعاناً في التدقيق، إليكم المراحل التي اجتازها الفن المعروف بتصوير «المرئيات»

تتضمن أولى هذه المراحل إبراز صورة المرئيات مباشرة بطريقة

(*) « نص الخطبة التي أذاعها الفنان الكبير محمد بك ناجي مدير الأكاديمية الملكية المصرية بروما، والملحق الثقافي بإيطاليا، بمناسبة افتتاح معرض البندقية الدولي للفنون الجميلة حيث مثل مصر. »

ساذجة . أما الثانية فتقتبس العناصر الطبيعية لإبداع الطبيعة من جديد . وتطمح الثالثة إلى تكوين عالم لا يمكن تصوره مستقلاً عن عالمنا المعقول .

والرأى عندنا أنه يمكن أن نحـدد بين قطبين ما ينتاب عالم الفنون من الاضطراب البالغ : أولهما المحسوس وهو نقطة ارتكاز الفن التصورى أو المرئى ، والآخر المجرد ويثير فى النفس برموزه وإشاراته المعانى والارتسامات .



صناع الخزف — من تصوير محمد بك ناجى
(عن معرض البندقية)

وتطرف الفن المعاصر وجموحـه شبيه بتحرير الفرد من الأوضاع القائمة . والنشاط الروحى الرفيع لا يقبل بطبيعته أى مبرر؛ إذ هو حادث مستقل لا يخضع لسواه أو يمكن استخدامه كأداة . إزاء هـذه الانقلابات الطارئة على الفن بفعل التفكير القلـق المتضارب ، وما تقدمه لنا مـذاهب مثل : « ماوراء الطبيعة » (الميتافيزيقيـة) ، « والتجريدية » ، « وما فوق المحسوس » (سير رلست) ، « والاستبطانية » (فرويدزم) ؛ لا يعدو واجبنا غير الإلمام بهذه التيارات التى تعتبر أدبية أكثر من أن تكون فنية : أما الأخذ بها والجرى عليها فمتروك للأذواق والميول . ولا يخفى أن حب البشرية والدين والتقاليد والوطن ليست موضوع ما يعرف « بالفن الدولى » وهذه العوامل المذكورة التى خلقت للانسان أجل تراث ما تزال تفعل فعلها فى بعث نهضة الشرق . ولسوف يظل الشرق للجميع مستودعاً روحياً زاخراً ليعالج مرة أخرى هذه الوثنية يسمى عالم الفن للتحرر منها .

هذا ما يلقيه علينا معرض البندقية من الدروس ، وإنا لجد عارفين له بالجميل .

محمد ناجى



من شئون الحرب في الإسلام :

قال عمر بن الخطاب لعمرو بن معدى كرب : صف لنا الحرب ، قال : مرة المذاق إذا كشفت عن ساق ، من صبر فيها عرف ، ومن نكل عنها تلف .

وقال هشام بن عبد الملك لأخيه مسلمة : هل دخلك ذعر قط لحرب أو عدو ؟ قال ما سلمت من ذلك من ذعر نبه على حيلة ولم يغشني ذعر سلبني رأيي . قال هشام : هذه والله البسالة .

وسئل بعض أهل التمرس بالحرب : أي المكائد فيها أحزم ؟ قال إذكاء العيون ، وإفشاء الغلبة ، واستطلاع الأخبار ، وإظهار السرور ، وأمانة الفرق ، والاحتراس من المكائد الباطنة ، من غير استصغار لستنصح ، ولا استناد لستغش ، واشتغال الناس عما هم فيه من الحرب بغيره .

وكان بعض أهل التمرين بالحرب يقول لأصحابه : شاوروا في حربكم الشجعان من أولى العزم ، والجبناء من أولى الحزم ، فإن الجبان لا يألوا برأيه ما يقي مهجكم ، والشجاع لا يعدو ما يشد بصائركم ، ثم خلصوا من بين الرأيين نتيجة تحمل عنكم معرة الجبان ، وتهور الشجعان، فتكون أنفذ من السهم الزالج ، والحسام الوالج . ولما فتح عمرو بن العاص قيسارية ، سار حتى نزل غزة ، فبعث إليه علجها أن ابعث إلى رجلاً من أصحابك أكلمه ، ففكر عمرو وقال ما لهذا أحد غيري ، فخرج حتى دخل على العلج فكلمه فسمع كلاماً لم يسمع قط مثله ، فقال العلج حدثني هل في أصحابك أحد مثلك ؟ قال لا تسأل عن هذا إني هين عليهم إذ بعثوا بي إليك وعرضوني لما عرضوني ولا يدرون ما تصنع بي ، فأمر له بجائزة وكسوة ، وبعث إلى البواب : إذا مر بك فاضرب عنقه وخذ ما معه ، فخرج من عنده فمر برجل من نصارى غسان فعرفه ، فقال : يا عمرو قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج ، ففطن عمرو لما أراده فرجع ، فقال له العلج ما ردك إلينا ؟ قال نظرت فيما أعطيتني فلم أجد ذلك يسع بني عمي فأردت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية ، فيكون معروفك عند عشرة خيراً من أن يكون عند واحد ، فقال صدقت عجل بهم . وبعث إلى البواب أن خل سبيله .

كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص رضوان الله عليهما : أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ... ولا تعملوا بمعاصي الله وانتم في سبيل الله ... واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم ، أسأل الله ذلك لنا ولكم . وترفق بالمسلمين ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم ، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامى ، الانفس والكراع ، وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولوهم خيراً ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح . وإذا وطئت أرض العدو فبث العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه والغاش عين عليك وليس عينا لك ، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا إمدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم ، وتنق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك ، وتخير لهم سوابق الخيل ، فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد ، ولا تخص بها أحداً بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ، ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة ونكاية ، فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك واجمع إليك مكيدتك وقوتك ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتلته وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنعه بك ، ثم أذك حراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك ، ولا تؤتى بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه لترهب به عدو الله وعدوك .

والله ولى أمرك ومن معك وولى النصر لكم على عدوكم والله المستعان . قال خالد بن الوليد عليه رضوان الله عند موته : لقد لقيت كذا وكذا زحفاً ، وما فى جسمى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية ، ثم ها أنذا أموت حتف أنفى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء . وقالت عائشة رضوان الله عليها : أن لله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير كلما خفقت الريح خفقت معها ، فأف للجبناء فأف للجبناء .

الوساطة الدولية :

هى تدخل دولة أو شخص تدخلا ودياً فى خلاف قائم بين دولتين أو أكثر لحسم النزاع بما يرضى الفريقين كوساطة البابا سنة ١٨٨٥ بين دولتى أسبانيا وألمانيا لرفع الخصام الذى كان بينهما بسبب جزيرة كارولين ، وقد عرض عليهما البابا فكرة لفض النزاع فوافقتا عليها فى معاهدة عقدت بينهما فى روما .

والوساطة إما أن يعرضها الوسيط على المتنازعين من نفسه أو يطلب إليه ذلك أحد الفريقين أو غيرهما . والوسيط ناصح ينحصر عمله فى فحص القضية المختلفة فيها فحصاً دقيقاً واقتراح ما يراه نافعاً ومقبولا لدى الفريقين .

وقد جاء فى المادة الرابعة من معاهدة لاهاى ما نصه : إن عمل الوسيط ينحصر فى التوفيق بين الآراء المتعارضة وتخفيف الأحقاد التى تنشأ عن الخلاف .

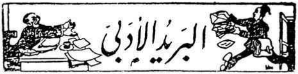
وجاء فى المادة السادسة من المعاهدة المذكورة : إن المساعى الجميلة والوساطة سواء أكانتا بطلب من الدول المتنازعة أم بلا طلب منها لا تخرجان عن حد أسداء النصح ولا تلزمان الفريقين .

والفرق بين الوساطة والمساعى الجميلة هو أن الوسيط يدخل فى المفاوضة تواً ويضع الأسس لحل الخلاف ، أما الساعى لرفع النزاع فيعمل لرفع الخصام بنفوذه وسلطانه ، دون دخول فى المفاوضة أو وضع أسس للصلح .

والفرق بين الوساطة والتحكيم أن الوسيط ناصح يبسط رأيه للفريقين ويترك لهما الخيار فى القبول أو الرفض . وأما الحكم فحاكم يبرم قرارات حكمية ، والفريقان مجبران على تنفيذها . وأوضح فرق بين الوساطة والتحكيم هو أن الوساطة مفاوضة سياسية ، وأما التحكيم فعمل حقوقى ، وأن الوساطة تكون فى فى أى مسألة من المسائل المختلف فيها وإن كانت تتصل بشرف الدول وحياتها ، وأما التحكيم فلا يشمل هذه المسائل .

وأول رغبة فى تحقيق الوساطة كانت فى مؤتمر باريس عام ١٨٥٦ فقد ورد فى البيان الذى أذاعه المؤتمر : إن المندوبين يرغبون باسم حكوماتهم فى أن تطلب الدول المتنازعة وساطة دولة محبة أخرى أو بذل مساعيها الجميلة فى النزاع الناشب بينهما قبل أن تمتشق الحسام . ثم جاءت معاهدتنا لاهاى الأولى والثانية وبحثتا فى الوساطة والمساعى الجميلة ، وقسمتا الوساطة إلى قسمين: الوساطة العادية والوساطة الخاصة ، فالوساطة العادية جاء عنها فى المادتين ٢ ، ٣ : إن الدول المتعاقدة تتعهد بأن تجنح إلى توسيط دولة أو دول أو إلى طلب مساعيها الجميلة قبل أن تمتشق الحسام ، على أن تكون الأحوال مساعدة على ذلك ، كما أنها ترى من الواجب على الدول المعتزلة (الحيادية) أن تعرض وساطتها على المتنازعين خلال الحرب إذا كانت الحالة مساعدة على الوساطة ، ولا يحق لأحد الفريقين أن يرى هذه الوساطة عملا يناقض المحبة والولاء . والوساطة الخاصة بحثتها المادة ٨ من معاهدتى لاهاى فجاء فيها : إن من الواجب على أى دولة تقع فى نزاع مع دولة أخرى من أجل قضية مهمة أن تختار دولة ثالثة وتخولها حق المفاوضة مع دولة رابعة يختارها خصمها لإعادة العلاقات السياسية التى انقطعت بينهما ، ويجب على الدولتين المتنازعتين أن تمتنعا عن كل خصومة خلال مدة المفاوضة التى لا تتجاوز ٣٠ يوماً إذا لم يكن هناك نص يحدد المدة .

أسامة



أزهري في السوربون :

مما يذكر لمصر عامة وللأزهر خاصة مقرونا بالفخر والإعجاب اليوم الثالث من شهر يولية سنة ١٩٤٨ م ففي هذا اليوم شهدت باريس لوناً من ألوان النبوغ المصري ، وشاهدا من شواهد التطور العلمي في الأزهر الحديث ؛ ففي قاعة «ريشيليو» الكبرى بالسوربون نوقش فضيلة الأستاذ الشيخ محمد يوسف موسى أستاذ الفلسفة في الأزهر الشريف ، لنيل درجة « دكتوراه الدولة في الفلسفة » ؛ وقد تقدم الأستاذ موسى إلى تلك المناقشة برسالتين ، الأولى موضوعها «الدين والفلسفة في رأي ابن رشد ، وفلاسفة العصر الوسيط» وموضوع الثانية « التوجيه الفلسفي ، أو مابعد الطبيعة ، في القرآن» . وكانت لجنة المناقشة والامتحان مكونة من خمسة أساتذة من السوربون والكوليج دي فرانس كما هو المتبع دائماً في دكتوراه الدولة . وقد رأس لجنة المناقشة البروفسور ليفي بروفنسال ، وشهد الامتحان أيضاً الدكتور طه حسين بك ، كما شهده أكثر من مائتي طالب مصري من طلبة البعثات في فرنسا ، وكان الأستاذ موسى موفقاً كل التوفيق في عرضه لنظريات رسالتيه ودفاعه عن آرائه فيهما ، استمرت المناقشة خمس ساعات كاملة ، ثم أعلنت اللجنة أن الأستاذ موسى قد نال درجة دكتوراه الدولة في الفلسفة بدرجة مشرف جداً والدرجة التي نالها الدكتور محمد يوسف موسى هي أعلى درجة تمنحها السوربون .

وعقب الامتحان أقبل أصدقاء الدكتور موسى من المصريين والفرنسيين يهنئونه على ذلك النصر العلمي الباهر ، وأشاد الدكتور طه حسين بك بفضله كثيراً في تلك البرهة . وقد دعت السوربون الدكتور موسى لإلقاء محاضرات عن فلسفة التشريع الإسلامي في القرآن باللغة العربية .

ألا إن هذا يوم من أيام الأزهر المشهودة ، وإذا كنا نزف التهنئات إلى الدكتور محمد يوسف موسى على ذلك التوفيق الرائع ، فإننا نسأل الله أن يعيده قريباً إلى جامعته الإسلامية الكبرى حتى يشارك مشاركة قوية في السير بها إلى الأمام

أحمد الشرباصي

المدرس بمعهد القاهرة الثانوي

أحسن ما قيل في كلمة أشياء

حكي أن بعض النحاة سئل عن كلمة أشياء فتظرف ، وقال : « إني لا أخالف قول الله تعالى: « لا تسئلوا عن « أشياء . » وما تظرف هذا النحوي ، وأجاب بهذا الجواب إلا وهو يرى أن النحويين — وإن كانوا أجمعوا على منع صرفها — في حيرة من أمر جمعها، وأمر تعليل منع صرفها .

وقد روى العلامة المحقق شهاب الدين الخفاجي في كتابه طراز المجالس في مبحث هذه الكلمة — وذلك بعد أن نقل عن النحاة إجماعهم على أنها ممنوعة من الصرف . وتعليلاتهم لذلك — روى الخفاجي : أن أحسن ما قيل فيها ، وعد أقرب إلى الصواب هو ما قاله الكسائي : وأنها جمع شيء كفرخ ، وأفراخ . وترك صرفها لكثرة الاستعمال تشبيها بفعلاء أي بألف التأنيث الممدودة، وقد يشبه الشيء بالشيء فيعطى حكمه كما شبه « أرطى » بألف التأنيث الممدودة فمنع صرفه في المعرفة .

ولعل الكسائي يريد بكثرة الاستعمال الوارد في تعليله — أن كلمة أشياء وردت قراءتها هكذا عن الرسول بغير تنوين مجرورة بالفتحة ، وأنه ليس بد من استعمالها هكذا في هذه الحالة ؛ إذ كل النحاة مجمعون على أنها غير مصروفة وإنما اختلفوا في التعليل وعدم اهتدائهم إلى تعليل صحيح لا ينفي أن منع الصرف موجود .

وإلى هنا يتبين أن الأستاذ البشبيشي — في ارتيائه ما رأى من صرف الكلمة — قد خالف إجماع النحاة دون مبرر قوي . فضلاً عن أنه تكلف في التعليل . وعرض علينا تعليلاتهم لهذه الكلمة مقتضبة اقتضاباً لا ينقع غلة .

وإذا ثبت أن النحاة مجمعون على أن كلمة أشياء غير مصروفة، وأن الكسائي علل منع الصرف بأنها شبه فعلاء ، وقوى ذلك

بكثرة الاستعمال ، وعرفنا ما المراد بهذه الكثرة — إذا ثبت هذا فقد سقط استدلال الأستاذ البشبيشي بالقياس على كلمة أفياء.

وإنه ليبدو لي — بعد ما سبق — أن أسأل الأستاذ عن هذه الكلمة في الآية القرآنية ؛ فقد وردت كلمة أشياء في الآية مسبوقة بحرف جر . وهو عن ، فلم ضبطت الهمزة الأخيرة بالفتحة ! أليس هذا يدل — دون احتياج إلى كثرة تعليلات ، لا داعي لها — أن كلمة أشياء اسم ممنوع من الصرف جر بالفتحة كما هو المعهود فيه لسبب — من الأسباب المعتبرة في المنع .

على أنه لو كانت أشياء مصروفة كما يرى الأستاذ لضبطت الهمزة الأخيرة — على الأقل — بالجر من غير تنوين هكذا : « لا تسئلوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم » وكان هذا كافياً في التناسب ، والانسجام مع محيطها في الآية الكريمة . وكنا وكان النحاة من الملزمين بصرفها ، وما أجهدوا أنفسهم ، وأعنتوها هذا الإعنات الطويل .

ولكن — يا سيدي الأستاذ — كل هذا لم يكن ، وإنما الذي كان هو أنها جرت بالفتحة ، ودل ذلك على أنها ممنوعة من الصرف ، ولأي سبب كان المنع؟ ذاك هو ما أوقع النحاة في حيرة وجعلهم يختلفون في أصل جمعها ويذهبون مذاهب شتى في تعليل منع صرفها ، وإن كانوا أجمعوا على منعها من التنوين .

محمد غنيم

حول بيت :

قال الأديب : أو قرأت قصيدة الجارم بك في « فلسطين » حين يقول :

عشنا أعزاء ملء الأرض ما لمست
جباهنا تربها إلا مصلينا

ثم أو قرأت من قبل قصيدة شوقي — رحمه الله — في أندلسيته حين قال :

لفتية لا تنال الأرض أدمعهم ولا مفارقهم إلا مصلينا

قلت : قرأت وعلمت ماتعني ، ولكن ماقولك أنت في قول القائل :

وقوفاً بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

وقول الآخر :

وقوفاً بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

قال الأديب : إن ما قاله الرواة والشعراء في أمر البيتين صحيح وأن كلا من الشاعرين صادق في قوله ، أمين في نظمه ، لم ينقل أحدهما عن الآخر ، ولكنهما صدرا عن مورد واحد بمعنى واحد

قلت : وإذا كان هذا هكذا فما بالك تشك وتشكك القارئ معك في بيت الأستاذ الجارم وهو من هو ؟ أو كانت جملة « إلا مصلينا » تلك وقفاً على أمير الشعراء دون أشعر الشعراء ؟

وإذا كان بعض النقاد — قديماً وحديثاً — قد تجاوزوا في اتفاق بيتين معنى ومبنى ؛ فكيف يصح الحجر على اللفظ وهو أداة التعبير والأداء ؟ !

وبعد ، فالنقد تذوق وليس بتشدق وتفيهق ، ولا هو رجم بالغيب أو تعلق بالشبهات ، وللشبهات حدود .

الزيتون **عمر نادر**

لا تسألوا عن أشياء :

في العدد السابق من مجلة الرسالة الغراء كتب الأستاذ محمود البشبيشي كلمة عن « أشياء » وأشار إلى اضطراب آراء النحاة في أسباب منعها من الصرف ، وانتهى إلى أنها وردت ممنوعة من الصرف في قوله تعالى : « لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم » بآية ١٠١ من سورة المائدة حتى لا تقع « إن » بعد الهمزة المكسورة المنونة فتتوالى « إن » مرتين ، والأستاذ لا يرضى ذلك بحجة أن القرآن وهو المثل الأعلى للبيان الرفيع لا يجيز هذا التعبير .

فإليه قول الله تعالى : « وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون » في آية ١٥ من سورة يس ، وقوله تعالى : « وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير » في آية ٩ من سورة الملك ، وفي كلتا الآيتين جاءت « إن إن » بهذا التكرار المقبول الخفيف على اللسان « من شيء إن أنتم ... »

ولهذا تبقى كلمة أشياء — كما كانت — ممنوعة من الصرف لأحد الأسباب المدونة بكتب النحو ، وقد وردت كلها باختصار في « حاشية تفسير الجلالين » للجمل عند شرح آية « لا تسألوا عن أشياء ... » خلافاً لما يتوهمه الأستاذ البشبيشي ولما يراه ، وهو مجتهد في اللغة له أجر على خطئه غير المقصود !

أحمد أحمد العجمي



زعماء الاصــــلاح

في العصر الحديث (*)

تأليف الأستاذ الجليل أحمد أمين بك

بقلم الأستاذ محمد خليفه التونسي

أستاذنا الجليل أحمد أمين من علمائنا النابغين الذين ندين لهم بالفضل الكبير في « ريادة » مجهولات التراث الإسلامي وكشف خفاياه ، والذين عبَّدوا لأنفسهم بجهودهم الخاصة الطرق التي سلكوها إليها فاستقاموا عليها ، وعُرفت بهم كما عرفوا بها .

فأعلى القمم في البيئة العلمية التي نبت فيها الأستاذ تتمثل في علم الشيخين الجليلين : محمد الخضري بك ، وعبد الوهاب النجار ، ولكن الأستاذ استطاع أن يرتفع بجهاده الشخصي إلى مستوى فوق أعلى هذه القمم . وهو من أظهر « الرواد » الأكفاء الذين أحسنوا دراسة تطورات الحركات العقلية في التاريخ الإسلامي وأخرجوا محصول دراساتهم في كتب كثيرة تعد في بابها من أوفى المراجع اليسيرة التناول ، وأكثرها دقة ونظاماً ووضوحاً ، ومن أجل ذلك لا نرى كتاباً أخرج بعد كتب الأستاذ في موضوعاتها إلا رأينا فيه استشهادات كثيرة بها ، وإحالات كثيرة إليها ، مما يشهد بفضل الأستاذ وكفايته ، وحسن ثقة الباحثين به وبآرائه .

ودراسة الحركات العقلية الفردية والاجتماعية خير ما تظهر فيه « ملكاته الذهنية الأصلية » فهو يبدو المتوسم في هذا المجال كالسمكة الجبارة في اليم الزاخر : سارية في مسبحها في خفة ونشاط عاملة بكل قوتها ، منطلقة بكل حريتها دون تردد ولا بهر ، ودون شعور بالخوف ولا الغرابة . ولم التردد والخوف وهي في « بيئتها » التي خلقها الله ويسرها لها ؟ لقد ألفتها فهي عنها راضية ، وإليها مطمئنة ، وبها ناعمة مهما اعتكر اليم ، وضاقت أزمانه ، وجاشت دواماته ، واشتجرت تياراته ، وأطبقت عليه الأعاصير تناوشه من كل جانب وإن « السمكة » لتبدو هناك في منتهى جبروتها وحريتها وأروع حركاتها وأجلها . فمن شاء أن يراها في هذه الصورة الممتعة فلينظر إليها هناك ، وكذلك من شاء أن يلقى الأستاذ في أكمل أهبة وأمتع صورة فليلقه في كتبه التي درس فيها الحركات العقلية الإسلامية : ففيها يرى ملكاته الذهنية الأصيلة متماسكة في عملها كل قواها ونشاطها واطمئنانها . إنها هنا تعمل في « بيئتها » كأنما « تلهمها » التصرف الواجب « بداهة أو غريزة » دون بذل أي مجهود عقلي في البحث والاختيار . إنها « ركبت » لتعمل هذا العمل ، وإنها لتتكلف فيه كل وسعها ، وتجهد له كل جهدها ، وإن كانت كل كلفها وجهدها خفية لفرط موافقة هذه الملكات لعملها واتصالها به .

ومن يقرأ فاحصاً متدبراً سلسلة الكتب التي أخرجها الأستاذ ودرس فيها الحركات العقلية الإسلامية مثل كتاب فجر الإسلام وتوابعه يجد كل فصل فيها مصداقاً لما نقول .

والكتاب الذي بين أيدينا على نمط هذه المجموعة لا يختلف عنها إلا اختلافاً يسيراً سنوضحه بعد ، وهذه التواليف كلها تسيطر عليها « الروح العلمية » وتستقيم مضامينها على « النهج العلمي » معاً ، وقلما نجد فيها مواضع « محررة » من سلطان هذا النهج ، وأكثر هذه المواضع القليلة « حلقات مفقودة » في سلسلة البحوث المعروضة لا تتضح « فراغات » مواضعها إلا للمختصين ، و « النهج العلمي » يوجب على الباحث ترك « فراغ مناسب » لكل « حلقة مفقودة » حتى يعثر عليها هو أو غيره بعد ، وتظل قبل ذلك « مفتوحة » للدارسين .

لا يختلف هذا الكتاب عن « فجر الإسلام » وتوابعه إلا في الغاية التي يرجوها المؤلف منه ، فهو لا يقصد فيما يقدم من معلومات عن هؤلاء المصلحين وإصلاحاتهم أن تُعلم فحسب بل أن تكون حافزاً لهم الشباب إلى الإصلاح والنهوض بأممهم ،

(*) الكتاب ٣٥٨ صفحة من القطع الكبير ، نشرته مكتبة النهضة المصرية بشارع عدلي بالقاهرة ، وطبعته لجنة الترجمة والتأليف والنشر سنة ١٩٤٨ ، وثمنه أربعون قرشاً

ومن أجل ذلك لا عبرة بأن فصول الكتاب متناثرة ، ولا بأن بعضها نشرت من قبل على « صورة » مقالات فى بعض المجلات ولا عبرة حتى بعنوان الكتاب « زعماء الإصلاح ... » فأنت إذا كتبته « حركات الإصلاح ... » لم يكن عنوانك أقل صدقا فى دلالته على مضامين الكتاب من العنوان الذى اختاره مؤلفه له فهو « كتاب عنى فيه أستاذنا الجليل بدراسة الحركات الإصلاحية التى تتمثل أبرز صورها فى طائفة معظمهم من زعماء الإصلاح الدينى وأقلهم من زعماء الإصلاح السياسى فى الشرق الإسلامى فى الجيل الماضى » ولولا أن هذا التعريف — على قصره — لا يصلح أن يكون عنواناً لطوله لكان أليق عنوان لهذا الكتاب لأنه أصدق تعريف به كما سنقصه . وليسأل نفسه وحدها من يفهم العنوان على ظاهره .

يتضمن الكتاب تعريفاً فمقدمة فعشرة فصول اختص كل منها بزعيم وحوى له صورة شمسية ، فخاتمة .

فأما التعريف ، فبالكتاب وتطور نشره والغاية منه : فموضوعه « سير عشرة من المصلحين الحديثين فى الأقطار الإسلامية المختلفة » فأما أنهم عشرة كما وصفوا فنعم ، وأما أن الكتاب فى سيرتهم أو سيرهم فتعريف فيه « تواضع » من ناحية ومبالغة من أخرى ، كما سنبين بعد . ويفهم من كلام التعريف أن كثيراً منه نشر فى بعض المجلات ، ثم أتم وجمع « ليسهل تناوله ، ويكثر تداوله » وقد أحسن أستاذنا فيما صنع : إذ أرضى بصنيعه الكريم رغبة إليه ملحة كانت تختلج فى نفوس من قرءوا الأجزاء التى نشرت منه ، ومما زيد فى قيمة صنيعه أن فى الزعماء الذين تحدث بهم فى كتابه من ليس للقراء علم حتى باسمه ، ومنهم من للقراء به علم قليل مضطرب لا يسد حاجة ولا « يثير » فكراً أو قلباً . والغاية المرتجاة من الكتاب « أن يكون — فيما يصور من حياة المصلحين ونوع إصلاحهم — باعثاً للشباب ، يستثير هممهم ، فيحذون حذوهم ، ويهتدون بهديهم وينهضون بأممهم » وإنها لغاية حقيقة بالتقدير والسعى إليها ، ولا عجب فى أن يعمد إليها « مرب » كأستاذنا الجليل .

وليست هذه الغاية ظاهرة فى فصول الكتاب ، فالمؤلف أعقل وأكرم من أن يظهرها فى فصوله ، وإن كانت حاضرة فى ذهنه وهو عاكف على كتابة هذه الفصول . فمن « وراء » المعلومات التى يسوقها إلينا « معلمنا » الذى لا يعنيه إلا بسط الحقائق « لنعلم » بل قبل التصدى للتعليم وبعيداً عنه : أى فى مرحلة « اختيار » الموضوعات التى تعلم — من وراء ذلك كله يبدو المؤلف موجهاً عقله إلى عقول « تلاميذه ومريديه » وقد انبعثت من قلبه حرارة منظورة مجتازة عقولهم إلى قلوبهم حناناً وخفية « لتوحى » إليها إيحاء بالعطف والغيرة على المصلحين وإصلاحاتهم والنفور والتمرد على أعدائهم وأعدائها ، من غير أن يدرك « التلاميذ والمريدون » أنهم فى حضرة «مرب» أو واعظ فالمؤلف «يربى» من غير إخلال بالأصول التى يجب على « العالم » التزامها ، ولا يسلك سبل الوعاظ المفضوحة المقيمة ولا يتكلف حماستهم الزائفة ، فمن « يعلمه » هذا الكتاب فيها ونعمت ، ومن « يربه » فهو أفضل .

وأما الفهرس فتلتا صفحة فى عناوين فصول الكتاب لا فى أعلامه ، ولا فى عناصر موضوعاته ونحو ذلك ، ولنا حاجة إليها لما سنبين .

وأما المقدمة فهى لازمة أشد اللزوم لفهم الفصول التى يليها إجمالا ، وهى تمهيد لها ، إذا لم المؤلف فيها إلى نهضة العالم الإسلامى بعد الإسلام ثم سقوطه وجوده ، وما أصابه من محن حطمته وتركت فيه كثيراً من الآثار السيئة ، ثم ما كان من نهضة الغرب واقتحامه الشرق اقتحاماً جعله يفيق من غفلته ، ويحس بعيوبه وبخاصة إلى إصلاحها ، والمؤلف يبين بذلك أن البيئات التى ظهر فيها هؤلاء الزعماء كانت تحس بحاجتها إليهم ويبين أن « أمكنتهم » كانت « فارغة » تنتظرهم ، وأنهم لها وأنها لهم ، لم يقحموا فيها إقحاماً . ومن ثم يراهم القراء حيث هم دون أن يحس لظهورهم بغرابة ولا حيرة .

وأما الفصول العشرة ، فقد اختص كل فصل منها بزعيم ، والزعماء العشرة هم كما رتبوا فى الكتاب محمد بن عبد الوهاب فى جزيرة العرب ، ومدحت باشا فى تركيا ، والسيد جمال الدين فى الأفغان ومصر وغيرها ، والسيد أحمد خان ، والسيد أمير على فى الهند ، وخير الدين باشا التونسى فى تونس ، وعلى باشا مبارك ، وعبدالله نديم فى مصر ، والسيد عبد الرحمن الكواكبى فى الشام

والشيخ محمد عبده في مصر . وقد اختلفت حظوظ الفصول من صفحات الكتاب : ففصل « السيد أمير علي » وهو أقصرها — نال سبع صفحات ، وفصل « الشيخ محمد عبده » وهو أطولها — نال إحدى وستين صفحة ، وبقية الفصول بين هذين حظاً ، وفي كل فصل درست « البيئة التي نشأ فيها الزعيم المصلح وحاجتها إليه ، وصفاته التي أهلته للزعامة فيها ، وما واجهه في جهاده من عقبات ، وتعاقب عليه من أزمات ، وما صادفه من نجاح وخيبة وأسباب نجاحه وخيبته . كل ذلك قد ساقه المؤلف بأسلوب سديد ، وتعبير واضح ، مع أدب جم في النقد ، وتقدير قصد في النقاد .

وكما اختلفت الفصول حظاً من الطول والقصر اختلف حظها من الإتقان والتماسك ، ومن التأثر الخفي بالغاية التي قصدها المؤلف بكتابه .

وأما الخاتمة ، فقد استعرض المؤلف فيها إجمالاً وصف النقلة التي انتقلها الشرق الإسلامي على أيدي مصلحيه ، والفروق بين حاليه قبلهم وبعدهم ، وما وقع من الغرب عليه من أفكار ونظم في استبداده به ، والأزمات الروحية والمادية التي يعانيها الآن ، والتيارات والمذاهب الفكرية والاجتماعية التي تتدافع فيه ، والأخطار التي تتهدده ، والأطماع التي تشتجر حوله ، والمشكلات التي تواجهه في انتظار الحل على أيدي « مصلحين جدد » والشروط التي يجب توفرها في المصلح ، والشروط التي يجب أن تهيأ له لنجاحه في إصلاحه .

هذه كل مضامين الكتاب بإجمال دقيق ، ومن استعراضها يتبين سبب إعراضنا عن فهم العنوان على ظاهره ، فلم يدرس الكتاب بالإجمال ولا التفصيل « كل زعماء الإصلاح في العصر الحديث » ولا في الجيل الماضي وحده فضلاً عن الجيل الحاضر ، ولا كل زعماء الشرق الإسلامي فضلاً عن الشرق عامة والعالم بوجه أعم ، ولا حتى « كل » الزعماء الدينيين في الجيل الماضي في الشرق الإسلامي ، بل اكتفى بدراسة حركات الإصلاح على التحديد المتقدم كما يمثلها « أبرز » زعمائها ، وهو مع ذلك لم يوجه عناية ممتازة بتصوير « شخصيات » هؤلاء الزعماء البارزين القلائل ، ودراستهم دراسة بيوجغرافية بل أقنع من ذلك مع

أكثرهم بأقل ما يكفل فهم الصلة بين شخصية المصلح وإصلاحاته مع أقاليم بما لا يفيد شيئاً في فهم هذه الصلة التي لا بد من فهمها وهو يهتم في دراسة الزعماء أحياناً ببيان بيئتهم وأثرها فيهم ، وبيان ما ورثوا من أصولهم ، ويتمسك بتطبيق ذلك عليهم وعلى أعمالهم وإصلاحاتهم ، ولكنه يأتي مثلاً في فصل الشيخ محمد عبده فيعترف بأن نبوغ النابغ يعتمد على عنصرين : استعداده الفطري وبيئته التي عاش فيها ، ويلتوي على أستاذنا تطبيق ذلك على الشيخ الإمام ، فينفض يديه عنه جملة ، ويقول « إنه هكذا خلق » (ص ١٨٥) ولا عجب في ذلك عندنا لأن مجال أستاذنا الجليل الذي تظهر فيه ملكاته الذهنية الأصلية — كما قدمنا — دراسة الحركات العقلية ، ولا نقول فيه إلا ما قال في الشيخ الإمام « إنه هكذا خلق » وذلك حسبنا وحسبه أيضاً كي يكون من أعلامنا الذين نفخر بهم ونطاول بهم أمثالهم في شتى الأمم عن ثقة وجدارة ليس في الكتاب دراسة جليلة ولا تافهة لدبفاليرا ولامزاريك ولا طيلاق ولا غاندي ولا تشانج كاي شيك ولا مصطفى كمال ولا سعد زغلول ولا قاسم أمين ولا أحد من كثير أمثالهم ، وإن كانوا جميعاً من « زعماء الإصلاح في العصر الحديث » بل من أبرز زعمائه ، وفيهم ما لا يقل في عظمته وأثره فينا وقربه منا ، وصلته بنا عن كثير من الزعماء الذين اختارهم المؤلف الكبير .

وقد خلا الكتاب — مع أنه تاريخي — خلواً تاماً من ذكر المراجع : فلا إشارة إليها مفصلة ، ولا مجملة في حواشي الصفحات ، ولا تمهيد لها في أول الكتاب ولا في آخره ، ولا في أوائل الفصول ولا أواخرها ، ولعل غاية المؤلف من كتابه هي شفيعه في هذا السكوت ، فهو كتاب موجه إلى الشباب كي يثير حميتهم ، ولا حاجة مع هذه الغاية إلى ذكر المصادر ، لأن « الثقة » بما يقول « المربي » أمر مسلم به لدى « التلاميذ والمريدين »

ولعل لسكوته سبباً آخر شافعاً له : فقد نشرت فصوله من الكتاب في صورة مقالات في إحدى المجلات للقارىء العجلان ، ثم جمعت المقالات المنشورة وأضيف إليها مثلها فاستوت كتاباً ، ولا ضرورة مع القارىء العجلان إلى ذكر المراجع أيضاً ، إذ كل ما يعنيه أن « يعلم » وقد « يثار » بذلك وحده ، ولا حاجة إلى المصادر لا في « التعليم » ولا في « الإثارة » ولا بعينه مرجع

علمه وثورته للبحث بنفسه بعد ذلك استزادة من العلم والثورة .

غير أن ذلك كله لا يغنينا من ملاحظة نصوص حصرها أستاذنا بين أقواس ، ولا شك أنها من كلام غيره ، ولا ذكر معها لأصحابها فى المتن ولا الحاشية (مثلا ص ٣٩) كما أن هناك نصوصاً حصر أولها وأطلق آخرها وذلك يحير القارىء فلا يستطيع أن يميز كلام المؤلف من كلام غيره (ص ٣٩) .

وقد تغتفر « الثقة » و « المجلة » السكوت عن المصادر كما أسلفنا ، ولكنى لا أدرى أتغتفران للمؤلف أيضاً أن ينطلق فى إيراد خواطر على لسان مصلح دون أدنى إشارة إلى اقتباس نص له ولا استشهاد بواقعة تاريخية عليه تؤكد لأهل « الثقة » وأهل « المجلة » مما أن المصلح كان يفكر على النحو الذى قيل على لسانه للتفرقة بين أسلوب القصاص وأسلوب الباحثين (أنظر ص ٤١ — ٤٢ ، ص ٤٥ — ٤٦) .

إن لكل كفاية مزيتها وخطرها ، وقد تحدثت قبل بكفاءة أستاذنا فى دراسة الحركات العقلية ، وجودة سبح ملكاته الذهنية الأصلية فى عيلمها الزاخر مهما اعتاصت مساربه ، ولعل هذه الرغبة فى السبح هى التى أدت بها — فى دراسة الحركة الوهابية — إلى تناول الحالة الدينية فى الشرق الإسلامى عامة ، وإلا فهل يمكن أن نسلم مهما بلغت « ثقتنا » وبلغت « مجلتنا » — بأن محمد بن عبد الوهاب فى جزيرة العرب كان يعرف « فى مصر شجرة الحنفى ، ونمل الكلشنى ، وبوابة المتولى » (ص ٩) أو هل تأثر بهذه « المقدسات » وإلا فما الداعى إلى الحديث بها فى دوافعه إلى الإصلاح ، والحديث بغيرها فى غير موضعه (مثلا ص ١٢٩ — ١٣٠) .

وأستاذنا الجليل — غفر الله له انتصاره للعامية — كتب بالعربية منذ عشرات السنين ، فهو كاتب « منقوع » فيها ، ومن أجل ذلك وجب علينا أن نعرف له حق « المجتهد » فى « سك » تراكيب جديدة فيها ، ولو لم ترد « المعاجم » بها ، ما دام لها مبرر « ذوق » يحسه الأديب . مثال ذلك قوله « مازجا التصوف بالفلسفة بالهيئة بغير ذلك » (ص ٦٣ ومثله فى ص ٣٠٩) وقوله « غيورون » (ص ٣٥٥) والمعروف أن جمع غيور غُيُر . وأنا أحمل تبعة هذا وبا إليه مع أستاذى الكبير .

وقد وردت تعبيرات أخرى لا أدرى رأى القراء فيها ، فأستاذنا يستعمل « السِّلْم » مذكرة (ص ٣٥٥) وما أعرفه — وليس بين معجم — أن السلم مؤنثة كما وردت فى القرآن « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » فهل يجوز تذكيرها ؟ ويقول « صورة للسيد جمال الدين أهداها الشيخ محمد عبده .. » (أنظر الصورة أمام ص ١٠٠) والذى أعرفه أن أهدى يتعدى لثانى مفعوليه بإلى أو باللام . ويقول « فمن أراد الحق كاملا وإلا لا » (ص ١١٠) وأعرف القول « وإلا فلا » (أنظر أيضاً ص ٤٤ ، ٢١١) .

وفى الكتاب مواضع موازنة بين شيئين أو أكثر لبيان وجوه الوفاق أو الخلاف ، غير أن ما قيل فى الموازنة لا « يوضح » هذه الوجوه توضيحاً حاسماً ولا شبه حاسم (أنظر الموازنة بين محمد عبد الوهاب ومدحت باشا وجمال الدين ص ٥٧ ، والموازنة بين ابن خلدون والكواكبى ص ٢٦٣) .

أما بعد فنحن نتوجه إلى أستاذنا الكبير بالتقدير والتحية ، شاكرين له على ما أسدى إلينا نحن الشباب من فضل بهذا الكتاب القيم الممتاز من وجوه عدة ، راجين الناشئة أن يقرءوه كى تتحقق الغاية التى ارتجاها أستاذنا لهم منه . وإنهم لأهل أن يستزيدوه من أمثاله ، و« كل يعمل على شاكلته » و « كل ميسر لما خلق له » و « الله يقول الحق وهو يهدى السبيل » .

(القاهرة) **محمد خليفة التونسى**

عصر سلاطين المماليك [1]

تأليف الأستاذ محمود رزق سليم

أستاذ الأدب العربي بكلية اللغة العربية

بقلم الشيخ محمد رجب البيومي

عرفت صديقي الأستاذ الجليل محمود رزق سليم — أول ما عرفته — شاعراً مطبوعاً ، ينظم القصائد العامرة في شتى الأغراض الوطنية والاجتماعية والعاطفية ، ولقد قرأت له منذ أمد بعيد ديوانه الرائع « وحي الربيع » فأعجبت بديباجته المشرقة وتفكيره المستقيم ، وعاطفته الدافقة الجياشة .

وعرفته — ثانياً — أديباً منصفاً يسوق آراءه الناضجة ، معتزة بأدلتها المقنعة ، وبراهينها الدامغة ، وذلك حين قرأت له منذ سنوات ، مصنفة ، القيم عن الأدب الفاطمي وما يليه ، فراقني منه إيجازه البليغ ، وتحليله الدقيق ، ونماذجه الجيدة المختارة من حر القول ، وما نور البيان بما يدل على ذوق محمود ، وطبع سليم .

وهأنذا أعرفه — للمرة الثالثة — مؤرخاً دقيقاً يكتب عن حقبة مظلمة من التاريخ المصري ، فيكشف القناع في براعة ، ويميط اللثام في إقناع ، فلقد قرأت كتابه الأخير « عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي » فخرجت منه بذخيرة ثمينة من الحقائق التاريخية ، كانت مخبوءة عن الناس ، مستورة في غواشي حالكة من الإبهام ، حتى جاء المؤلف فاستنطق المخطوطات العتيقة وقرأ المطبوعات العديدة ، وتنقل بين المكاتب العربية باحثاً فاحصاً ، وقد حالفه التوفيق فأصدر موسوعة حافلة عن هذا العصر الغامض ، تقع في أربعة أجزاء ضخمة . بلغ القسم الأول منها — وهو الذي نقدمه الآن — سبعمائة صحيفة دافقة بالمعلومات الغزيرة ، في تركيب سلس وترتيب دقيق .

ولقد وفق الأستاذ محمود في إختيار هذا العصر بذاته ، فقد مر به الكاتبون عابسين كالحين ، ومن ألم به منهم إلمامة يسيرة ، قسا عليه قسوة عاتية في حكمه ، فجرده من المحاسن ، ووصمه بما هو بريء منه ، وذلك ما دفع المؤلف إلى كتابة موسوعته الحافلة فأسهب واستطرد ، وناقش وجادل ، وعلل وحلل ، ثم أصدر حكمه النهائي تنطق أدلته بالحق ، وتعترف أسانيده بالصدق .

يقول المؤلف في مقدمة كتابه عن هذا العصر المغبون «ولقد راعني ما أصابه من جفاء ، وهالني ما ناله من صد ، وما رمي به حيناً من أنه عصر ظلمة وتأخر ، وانحطاط وتقليد مع أنه جليل الخطر ، عظيم الأثر ولم تقدم لنا منه الكتب الحديثة إلا صبابة لا تنقع غله ، وثمالة لا تروى طالب نشوة ، لذلك أحببت أن أدرسه ، وأطيل الوقوف بمعالمه حتى أصل إلى قرار الحق فيه ، وعولت على الرجوع إلى ما كتبه بنوه الذين عاشوا فيه ، آتيا البيوت من أبوابها ، فهم أصدق حديثاً ، وأقرب مرجعا ، وأجمل نجوى ، وأغراني البحث والقراءة حتى وجدتني غارقا في محيط من مؤلفات لا عدد لها ، فيها الغنية لكل أديب ، والمنهج لكل ناهج ، وهي كالبحر لا ينضب معينه ، وكالسيل لا تغيض عيونه ، حينئذ انبهرت عيني ، وماجت الآمال في نفسي موجا ووددت لو استطعت أن أضع موسوعة جامعة في أدب هذا العصر تكون منه للقارىء بمثابة المائدة الشهية التي تضم ألف طعام وطعام .. »

ولقد قصر المؤلف هذا الجزء على التاريخ السياسي للعصر المملوكي ممهداً له بكلمة موجزة عن التاريخ المصري من العهد الفرعوني إلى عهد المماليك ، ولجأ إلى الإسهاب حين تكلم عن أصل السلاطين ، وكيف انتقل إليهم الحكم من الأيوبين ، ولم يترك من رجال الدولتين (البحرية والبرجية) مملوكا حاكما دون أن يخصه بترجمة وافية مذيلة بالمراجع التي ورد إليها الكاتب ، وقد اهتم كثيراً برجال السلطنة البارزين كالظاهر بيبرس وقلاوون والغوري وطومان باي ، ثم عرج على نواب السلطنة فأفرد لهم أكثر من مائتي صحيفة تنطق بأعمالهم البارزة ، وتسجل على المحسن إحسانه ، وعلى المسيء إساءته في دقة وشمول .

على أني أخالف الأستاذ في ناحية هامة تشيع في مؤلفه ، فقد حرص كل الحرص على أن يترجم لكل من ولى السلطنة أو ناب عنها وكذلك من تحدث عنهم فيا بعده من القضاة والخلفاء وفي هؤلاء جميعاً من لا يستحق أن يكتب عنه سطر واحد ، حيث كان فرداً عاديا ، لم يخلف أثراً ، ولم تحدث في عهده من المفاجآت

(1) الجزء الأول . مجلدان في ٧٠٠ ص

السياسية ما يدعو إلى الحديث عن زمن ولادته ، أو مدة حياته ، أو آونة وفاته ! ! وإنما ولى وعزل وكأنه لم يولد ، فلم إذن نتعب أنفسنا فى تراجم أصنام آدمية ، قذف بهـا الزمن فى قرار سحيق ! !

ومن المؤرخين من يسهب فى الحديث عن الحـكام والرؤساء دون أن يتعرض للحياة الاجتماعية فى العصر الذى يؤرخه ، وكأنه يؤمن بأن تاريخ الشعب يتمثل فى تاريخ ملوكه ، ولـكن الأستاذ محمود رزق يفطن إلى خطأ هذا الوهم ، فيخص القسم الثانى من الـكتاب بالـكلام عن الناحية الشعبية ، فيتعرض للتقاليد والعادات التى شاعت فى المجتمع المصرى ، إذ يصف حفلات الزواج والمآتم والختان ، ويتحدث عن ليـالى السمر وأيام الأعياد والمواسم ، وخروج المحمل وعودته ، كما يعتنى اعتناء تاما بأخبار النيل والفيضان فيتحدث عن الجسور والترع والمقاييس ، ويميل إلى وصف الاحتفال بوفائه السنوى ، وإن كان المؤلف لا يجيد — أيضاً — عن استقصائه الشامل فهو يملأ أكثر من عشرين صحيفة بأرقام الصعود والهبوط وتواريخ الزيادة والنقص ، وهذه مغالاة لا تفيد القارىء فى شىء وما دامت هذه الصحائف العديدة تسير على وتيرة واحدة فيكفى أن يسطر الـكاتب نموذجا مختصراً منها على سبيل المثال !

ولا أكتم إعجابى بالفصل القيم الذى كتبه المؤلف الفاضل عن القضاء فقد استسقاه من أصفى المراجع ، وأبدع فى عرضه إبداعاً عجيباً ، فوصف جلوس السلطان للقضاء ، ونظره فى المظالم والخصومات ، ودلف إلى حقه الشرعى فى مصادرة الأملاك ، وتدخله الرسمى فى أحكام القضاة ، مبيناً بعض ما حدث من مشادة عاتية بين الحاكم والمحكوم ، ثم انتقل إلى القضاء الشرعى ، وكيف اختصى به الشافعية بادىء الأمر ؟ ثم اشترك فيه علماء المذاهب الأربعة على السواء ، وما شعور الشافعية إزاء ذلك ؟ ومن هو صاحب الحق فى العزل والتعين ؟ وكيف كان يحدث ذلك ؟ وبعد جولة ممتعة فى هذا المضمار ، ختم فصله الجيد بطائفة من التراجم الموجزة لأعلام الفقه والتشريع ، كل ذلك فى سلامة ووضوح .

ولقد كان الأستاذ منصفاً كل الإنصاف حين تعرض إلى محاسن هذا العصر ومساوئه فذكر من الأولى صد الهجمات المادية من التتار والإفرنج ، ورصد الأوقاف وبذل الأموال ، والثانية احتقار السلاطين للشعب وإهمال حقوقه السياسية وفداحة الضرائب وانتشار الجهل والأوبئة والزلازل ، وذلك جميل من باحث متحمس كتب كتابة ليمجد العصر المملوكى فدفعته الحقيقة إلى الاعتراف بالواقع المرير .

وبعد فلقد قرأت هذا الـكتاب من ألفه إلى يائه ، فرأيت من الواجب أن ألفت الأنظار إلى مادته الغزيرة ومعلوماته الضافية راجيا أن يعمل مؤلفه الفاضل على إنجاز ما لم يطبع من أجزائه فنحن إليها فى ظمأ شديد . جزاه الله عن صبره الدائب ، ومجهوده الشاق أطيب جزاء وأوفاه .

(الـكفر الجديد) محمد رجب البيومى